دكتور/ أحمد خالد عبده

التحقيق

(رواية)

المكتب المصري الحديث

www.almaktabalmasry.com

جميع حقوق الطبع والنسخ والنشر محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م

لا يجوز إعادة نسخ أو طبع أو نشر هذا الكتاب أو أى جزء منه بأى طريقة كانت ميكانيكية أو إلكترونية أو التصوير أو التسجيل أو البث عن طريق الشبكات الإلكترونية أو غيرها إلا بموافقة الناشر على ذلك كتابة ومقدماً

المكتب المصرى الحديث
www.almaktabalmasry.com
info@almaktabalmasry.com

القاهرة: ٢ شارع شريف عمارة اللواء ت: ٣٩٣٤١٢٧
الإسكندرية: ٧ شارع نوبار المنشية ت: ٤٨٤٦٦٠٢

العمدة

لاشك أننى لم أكن مهيئًا ولا متعودًا على مثل هذه الحوادث، وأعترف أننى شعرت بالارتباك والفزع عندما أبلغنى شيخ الخفر أن حارس منزل السيدة فوزية شقيقة فهمي بك عبد الرحمن وجدها ميتة على فراشها فى الصباح التالى لعودتها لمنزلها بالقرية، وحزنت بصدق على السيدة الفاضلة التى تُذكر فى قريتنا بأياديها البيضاء، وبما قدمته من خدمات جليلة، لكننى توجست مما قد يتبع هذه الحادثة غير المعتادة من معاناة للجميع، وتخوفت مما قد تجره التحقيقات من إقتحام رجال الشرطة للقرية وتغلغلهم ـ دون رادع ـ فى أسرارنا وحياتنا الخاصة، وشعرت رغمًا عني بالحنق والغيظ من حارس المنزل وزوجته اللذين سارعا بإبلاغ المركز دون أن يرجعا إلىَّ أو يقيما لأحد وزنا، ولم يقلل من شعورى ما ذكرته إمرأة الحارس من أنها صدمت عندما وجدت المرحومة ميتة، وخزانة ملابسها مفتوحة، كما أن زوجها الذى إستدعته على عجل إكتشف أن الخزنة التى وَضَع فيها مؤخرًا مبلغًا كبيرًا من المال من إيراد أرض السيدة فوزية بناءً على طلبها كانت فارغة تماما، وأكتشف الزوجة بدورها ضياع بعض المشغولات الذهبية الخاصة بالمرحومة، وأنهما خافا أن يُتهما إن لم يبلغا عن الوفاة والسرقة فى أسرع وقت.

ظللت طوال فترة عموديتى أخشى اللغط و الأقاويل،وأميل إلى حل مشاكل الناس داخل القرية دون الحاجة إلى تصعيدها، خاصة وأنا أعرف معاون الشرطة الذي أشتهر بتسرعه وشططه.

وعندما حضر فهمي بك ومعه أخويه، فإننى سارعت بتحذيرهم من هذا الضابط وتلهفه الدائم لأن يثبت مهارته وهمته، خاصةً فى مثل هذه القضايا الشائكة، ومما أعرفه عنه من عدم احترامه لعادات الفلاحين وتقاليدهم، مما قد يغريه بتجاهل وضع المتوفية الإجتماعى، ومراكز أقاربها وعائلتها الكبيرة، وبرغم ذلك فقد وافق البك على تشريح الجثة بسهولة لم أتوقعها عندما طلب منه الضابط ذلك، وإن إستخدم نفوذه كأحد كبار رجالات الحزب الحاكم فى تعجل الإجراءات، وتم تشييع جنازة المرحومة بعد ظهر اليوم التالى لإكتشاف الوفاة مباشرة، ونُشر النعى وأُقيم سرداق العزاء فى ذات اليوم.

تغيبت السيدة فوزية عن منزلها طوال الفترة الأخيرة بسبب مرضها الذى إستلزم علاجها فى عاصمة الإقليم، وكانت تعطى تعليماتها تليفونيا لحارس المنزل وزوجته فى أول الأمر، وحضر فهمي بك قبل الوفاة بحوالى الأسبوع للإطمئنان على أحوال القرية وتفقد أرضه وأرض إخوته، وأعطى إجازة للحارس وزوجته، لكن الحارس ظل يذهب مع زوجته أحيانا لتنظيف المنزل والعناية بالحديقة، ثم يعودان للمبيت فى منزلهما، حتى حضرت فوزية هانم فى ذلك المساء فجأة، ورآها بعض أهل القرية تهبط من إحدى سيارات الأجرة لتفتح باب الحديقة وتدخل السيارة، ثم شاهدوا السائق يحمل على كتفه حقيبة كبيرة أدخلها إلى المنزل، وعاد إلى سيارته حيث إنتظر خروج سيدة كانت ترافق السيدة فوزية فيما يبدو، وانطلقت السيارة بالسائق والسيدة الغريبة مغادرةً القرية.

فى نفس الليلة تلقيت مكالمة تليفونية منها تنبئنى بوصولها، وتطلب أن أرسل الحارس وزوجته ليبيتا فى حجرتهما بحديقة المنزل، على أن يوقظاها فى صباح اليوم التالى، حتى تنهى بعض الأعمال العاجلة، بدالى صوتها ضعيفاً مجهدًا فعرضت عليها أن أرسل زوجة الحارس - إذا كانت تريدها - فى الحال، لكنها كررت ما

طلبته بإصرار، وفعلت ما طلبته السيدة إلا أننى رأيت الاتصال ثانية بها لأطمئنها، لكن أحدا لم يرد على جرس الهاتف، فأيقنت أنها نائمة، وأرسلت أحد الخفر ليتأكد من أن الحارس وزوجته قد وصلا للمنزل، وأصبحا قريبين بحيث يمكن لها أن تطلبهما إن احتاجت شيئًا.

وحدثت الواقعة فى اليوم التالى، بدأت المشاكل وانقلب صفو قريتنا كدرًا، وهدوءها ضجيجًا وصخبًا لم ينقطعا منذ أن اكتشفت وفاة فوزية هانم، وسرقة المال الموجود في الخزنة والحلي الذهبية، ووجدها معاون الشرطة فرصة لينتقم من شخصى الذى مثل له تحديا فى أكثر من مناسبة، ولعل تجاهله لعادات الريف و جهله بتقاليده كانا سبب هذا الظن من جانبه.

لم ينس المعاون مقتل الخاطئة التى تخلص منها أخوها ليغسل عاره بدمها، ولم يكن أمامي إلا أن أتستر على جريمه وقعت بداع من الشرف والتقاليد الراسخة، فأضطر المحققون أن يقيدوا الحادث ضد مجهول، كما أنه طالما حنق عليَّ مهادنة بعض المطاريد حرصًا على صالح أهل القرية،غير مقدر أنه كان أمرًا لا مفر منه مهما كان ثقيلاً على نفسى، حتى أجنب القرية مواجهة مع هذه الجماعة من المجرمين الذين لا يرعون شرعًا ولا يردهم قانون إذا ما أحسوا تهديدًا أو افتقدوا الشعور بالأمان، وراح يردد الإشاعات والأقاويل عنى، وشجع الأعداء والحاسدين على نفث سمومهم فى أذنيه.

ولعل هذا ما جعله قاسيًا متحديًا فى أسلوبه الذى اتبعه فى استجواب أهل القرية، كما كان جافًا معي أنا نفسي، كأنه ظن أنه قد وجد فى آخر الأمر ذريعة يخترق بها سياج العادات التي حكمت منطقتنا بأسرها، وتحدت قوانينه وأساليبه المستحدثة التي عدها الجميع غريبة دخيلة عليهم.

أدرك شيخ الخفر ما تملكنى من هواجس ومخاوف، فجمع كل من شهد على شىء من الحادث مهما كان يسيرًا، وجعلهم يعيدون على مسامعة ما قالوه فى محضر الشرطة، وطفق يوفق بين أقوالهم ويحذف منها ما قد يثير الشكوك، أو لا يتفق مع روايات الأخرين، ثم أخذ على كل منهم موثقة ألا يقول أمام النيابة غير مالقنه إياه، مزج فى ذلك بين التهديد والوعيد من ناحية، والوعد بالمساعدة على النجاة من براثن المعاون ووكيل النيابة من ناحية أخرى، ورغم أن الحارس وزوجته كانا أكثر من أفادوا من هذا الإعداد الجيد وتلك الحيطة من جانب شيخ الخفر - إذ كانا أقرب الجميع إلى المرحومة وأكثرهم قدرة على ولوج المنزل والخروج منه - ممّا جعلها هدفًا متوقعًا لشكوك المعاون، إلا أنهما أتعباه حتى ظفر منهما بما يريد، وافقت الرجل على ما صنع وعددته من آيات الحكمة والخبرة، فضلاً عن كونه دليلاً على إخلاصه ووفائه وحرصه على مكانتى، وتقديره لصالح الناس فى القرية، وسعيه لتجنيبهم ما أعده لهم معاون الشرطة من شراك.

** ** ** **

لاقيت الأمرين من أسئلة المعاون المتكررة فى مناسبات مختلفة، وكأنه يريد أن يوقعنى فى خطأ، أو أن يجد تضاربًا فى أقوالى، ولما لم تُجد محاولاته نفعًا فقد ركز على تقصي أسرار الخلاف بين المرحومة وفهمي بك، ودور أخويهما الصغيرين فيه، ورغم أنه لم يفز إلا بالنذر اليسير من المعلومات، إلا أنني حرصت على أن أبدو له وكأنني أفضى بكل مكنون صدرى، فلا أخفى عنه شيئًا صغيرًا أو كبيرًا، وعاهدت نفسى ألا أخبره إلا بما أعرف يقينًا أنه سيصل إليه بسهولة دون الحاجة إلى روايتى، أمّا أسرار الباشا الكبير - والد المرحومة - التي كنت أعرفها عن طريق المرحوم والدي - العمدة القديم - ولا يعرفها أحد سواي فقد ظلت - كما آليت على نفسي - طى

الكتمان، وظلت كل الأقاويل التى أطلقها أهل القرية على فهمي بك قبل سفرة للخارج وبعده بعيدة عن متناول المعاون ورجاله.

** ** ** **

ظل الباشا الكبير - والد فهمي - طوال ثلاثة عقود مرت منذ شرائه الأرض والمنزل فى قريتنا حتى وفاته، يعتبر والدى صديقاً وناصحًا، ودأب على أن يترك له التصرف فى كل ما استشكل عليه من أمور المعاملات بينه وبين مزراعي أرضه من أهل القرية، ولم يصغ لمحاولات الوقيعة بينهما مهما كان مصدرها، وقابل أبى هذه الثقة بأن إعتبر أرض الباشا أمانة فى رقبته، وآلى على نفسه أن يحسن إدارتها بما يعود بالخير على الرجل الذى إئتمنه، وعلى أهله من فلاحى هذه العزبة وأهل قريتنا جميعًا.

إشترى الباشا العزبة من رجل أرمنى كان قد حصل عليها سدادًا لديون أصحابها الأصليين، وسعد أهل القرية عندما ترك "الخواجة" - كما تعودا أن يطلقوا عليه - أرضه، وغادر قريتهم بلا رجعة، ولم ينسوا أنهم رأوه يستولى على أرضهم بفضل الربا الذى ضاعف ديونهم، وجعلهم غير قادرين على سدادها، ولعل بعضهم شعر بالشماتة عندما تزوجت إبنه الخواجة من موظف نصف متعلم من قرية مجاورة، كان يعمل عند أبيها، ضاربةً عرض الحائط بمعارضته لهذا الزواج،وبقيت الإبنة مع زوجها تعانى من الفقر وشظف العيش، بينما غادر أبوها القرية مع باقى إخوتها، بعد أن قبض ثمن العزبة كاملاً من الباشا إلى حيث لا يعلم أحد، وظل سر هذه الزيجة وملابساتها مثارًا للقيل والقال، وندر فى القرية من أدرك أسبابها عن يقين، وكان عبد الرحمن باشا أحد من لاكت الألسن سيرتهم بهذا الخصوص..!.

** ** ** **

قضت ابنة الخواجة الشهور الأولى بعد زواجها فى عاصمة الأقليم، ثم عادت للقرية بعد أن أنجبت بنتًا فائقة الجمال فى نفس التاريخ الذى ولدت فيه ابنة الباشا فوزية هانم تقريبًا، وعمل زوجها موظفاً عند الباشا، وشبت ابنتها فى قريتنا فسنحت لها الفرصة لترتبط بصداقة مع ابنة الباشا التي كانت معها فى نفس المدرسة بعاصمة الإقليم، أصبحت الصداقة قوية لدرجة أن ابنة الباشا صممت فيما بعد على الالتحاق بمدرسة للمعلمات رغم عدم موافقة أبيها، وعندما علم الأب أن السبب يكمن في أن صديقتها نوت الالتحاق بنفس المدرسة بناء على رغبة أسرتها حتى لا تكلفها ما لا تطيق من المصاريف، دعا والد الفتاة إلى منزله، وعقب المقابلة علم أهل القرية أن الفتاتين ستنتقلان إلى العاصمة الكبرى للالتحاق بكلية الآداب. لكن ابنة الباشا عاشت بالطبع في شقة عائلتها بالعاصمة، بينما انتقلت ابنة مرؤوسه لتعيش في المدينة الجامعية، وهكذا رحب الرجل - مضطرًا - بالصداقة بين ابنته وحفيدة الخواجة، وكُتب لهذه الصداقة أن تستمر طويلاً وأن تؤثر على مجرى حياة كل الفتاتين فوزية هانم وألفت إمام.

** ** ** **

ظل والدى على عهده مع الباشا حتى آخر أيامه، وأذكر أنه تعود أن يحكي لنا عن الاختلاف الدائم بين فوزية وأخيها فهمى، ومدى تأثير وفاة والدتهما - زوجة الباشا الأولى - عليهما، وما تلا ذلك حين تزوج أبوهما بإحدى قريباته، وأنجب منها ولدين، وقد لاحظ أن فوزية كانت ترى أنها لا تقل عن أخيها الأكبر فى شيء، فنافسته فى الدراسة، ومارست من أصناف الرياضة ما لم يكن معتادًا بالنسبة للفتيات، خاصة فى قرية كقريتنا، مثل ركوب الخيل، والركض، وكان تفوقها فى دراستها، وقدرتها على التصرف بحكمة فى أمور المنزل يرجح كفتها عند والدها على أخيها فى كثير من الأحيان،

وكذلك ما سمعناه عن نزوات ابن الباشا، وضعفه أمام غرائزه مما تسبب فى مشاكل عديدة عانى منها الأب، وانعكس ذلك على دراسته فلم ينج من العثرات، واضطر أبوه فى نهاية الأمر إلى إرساله إلى أوربا ليدرس الحقوق، وربما أراد بذلك أن يتخلص من مشاكله، ويرتاح من مشاحناته مع أخته، وينقله إلى بيئة لا تستنكر ما جبل عليه من بهيمية ورعونة، وكان الأب سعيدًا قانعًا عندما علم أنه أوشك أن يتم دراسته، فلم يعارض فى أن يطيل فترة إقامته ليحصل على شهادة جامعيه أرفع، وقال لى العمدة الكبير ذات يوم أنه يشعر أن الباشا كان فى تلك الأيام سعيدًا بحق مع ابنته وولديه الصغيرين وزوجته الجديدة، وكأن متاعبه قد انتهت بسفر ابنه فهمى، ولم يعد هناك ما ينغص سعادته.

** ** ** **

فوجىء أبى بالباشا يخبرة أن ألفت إمام رُشحت لبعثة إلى المملكة المتحدة لتحصل على درجة علمية تؤهلها للتدريس فى جامعة العاصمة، وأن ابنته تريد أن تسافر لنفس الغرض على حسابها، وأدهشه أن يقبل الرجل سفر ابنته وحدها إلى تلك البلاد التى تختلف في عاداتها وتقاليدها عن مجتمعنا، وتساءل لماذا لم يفطن إلى الخطر الكامن فى هذه الرحلة، و قبيل سفر فوزية وألفت عاد فهمي فى إجازة إلى القطر، وأُعلنت فى منزل الباشا خطبة فوزية إلى شقيق زوجة أبيها، وفى نفس الوقت أعلن إمام أفندى أن ابنته ألفت قد خطبت لابن عمها، ولم يُقدر لهاتين الزيجتين أن تتما لظروف طرأت فيما بعد.

سافر الثلاثة بعد هاتين الخطبتين بعدة أيام، فقد رافق فهمي شقيقته فى هذه الرحلة حتى يطمئن عليها قبل أن يعود إلى فرنسا، وقال أبى لنا أنه لا يستعجب سفر ألفت إمام وهى قبل كل شىء نصف أجنبية، أما فوزية فقد كانت فتاة صغيرة نشأت فى بيئة ريفية مغلقة متحفظة، لا يخلو سفرها من خطر إستغرب أن يخفى عن الباشا.

سارت الأمور - فيما سمعنا - فى الغربة بلا مشاكل، وقضت كلتا الصديقتين حوالى السنتين لم تنقطع خلالها أخبارهما ولا خطاباتهما، ورغم هذا فإن إمام أفندى والد ألفت فتح قلبه لأبى ذات يوم، فشكا من أن إبنته لم ترسل إلى أسرة خطيبها خطابًا واحدًا، وأنها تجاهلت موضوع الخطبة فى خطاباتها له ولوالدتها، ورفضت أن تعود فى إجازة الصيف لإتمام إجراءات عقد القران، وصارحه بتخوفه من أن تكون إبنته قد أخذت طريقا غير الذى رسمه لها، ورغم أنه أقرَّ بفضل الباشا الذى ساعده فى إلحاق ابنته بكلية الآداب وسفرها للخارج، إلا أنه لم يكن مطمئنا لمرافقة فهمي ابن الباشا لابنته وصديقتها فوزية فى السفر، ولعله ربط فى ذهنه بين تمرد ابنته وتباعدها ووجود ابن الباشا قريبًا منها، وأشفق والدى عليه فلم يخبره بما طرأ على الباشا مؤخرًا من تغير، إذ أصبح دائمًا منشغل الخاطر مهمومًا، وأنه وصف ألفت ووالدها مرارًا بالجحود والنكران، والحقيقة أنه ربط بين هذا التبدل فى شعور الباشا وما علمه من أن أحد معارفه عاد إلى العاصمة الكبرى فى زيارة قصيرة من عمله فى عاصمة المملكة المتحدة، وإن لم يدر بالتحديد ما هى الأخبار التى حملها عن ابنته وأخيها، وما علاقة ألفت إمام بهذه الأخبار، وظل أبى يلوم الباشا الكبير فى قرارة نفسه، وأخذ يردد "أخطاء الآباء مهما طال بها الزمن يرثها الأبناء..!!..".

** ** ** **

انتقل إمام أفندي إلى عمل آخر في المركز بعد أن لمس فتور الباشا من ناحيته، وعادت ابنته ألفت من رحلتها بعد أن حصلت على شهادتها وعينت فى الجامعة بالعاصمة الكبرى، كما عادت فوزية بعدها بأسابيع فعينها أبوها مترجمة فى إحدى السفارات الأجنبية، وتأخرت عودة فهمي الذى لاكت الألسن سيرته واكتنفته الإشاعات، ولا

يستطيع أحد أن يجزم بما حدث فعلاً، ولكن المؤكد أن خطبة فوزية فسخت، وكذلك خطبة صديقتها ألفت إمام.

وعندما مرض الباشا وانتقل نهائيًا للعيش فى العاصمة الكبرى فإن أسرته إتصلت بفهمى الذى عاد على عجل، وأصرَّ الباشا على تزويج ابنه من إحدى قريباته، وخُطبت فوزية لشقيق العروس، وكانت شخصية ابن الباشا الأكبر قد تغيرت تغييرًا ملحوظًا، وأصبح مختلفًا تمامًا عن ذلك الشاب الأخرق المندفع الذى ترك القرية متجهًا إلى أوروبا، ولكنه ظل بلاشك أقل حنكة وحكمة من والده، كما كانت علاقته بأهل القرية واحترامه لتقاليدهم أقل، وظل تقديره لأشخاص مثل أبى وسائر كبار رجال القرية أدنى من تفهم أبيه لهم وتوقيره لوضعهم، دفع هذا أبي إلى التخلي عن الإشراف على أرض الباشا حتى تركها تمامًا بعد وفاة الباشا الذى قضى نحبه بعد مرض طويل، وعندما لحق به أبى فإننى أصبحت العمدة، ولم يكن من الممكن أن أتراجع عما قرره الأب، رغم أن هذا أثّر سلبًا على علاقتى بفهمى الذى نال البكوية بعد وفاة أبيه، وأصبح نائبًا فى البرلمان، كما أنه إنضم إلى الحزب الحاكم، وصار من ذوى النفوذ حتى قيل أنه رشح للوزارة عدة مرات، وظلت فوزية هانم تمثل له مشكلةً طوال هذه الفترة، فقد تركت عملها فى السفارة إلى أحد البنوك بعد فسخ خطبتها للمرة الثانية، ثم عملت فى إحدى المدارس الخاصة، وهناك تعرفت بزميل لها وتزوجته رغم معارضة أخيها، ولم يُكتب لها أن تنجب من زوجها الذى مات على إثر حادث سيارة، فعادت إلى القرية أرملة فى سن الأربعين بلا ولد ولا سند، وعلمنا أنها ستقيم فى منزل أسرتها بالقرية بعد أن اشترت نصيب إخوتها فيه.

قسَّمت فوزية هانم وقتها بين عملها فى المدرسة التى تقع فى عاصمة الإقليم صباحًا، والإشراف على ذلك المشغل الذى سعت لبناءه فى القرية فى المساء، واعتمدت في زراعة أرضها على حارس منزلها

وزوجته، وهو ابن ناظر زراعة والدها الذي عمل تحت إشراف والدى فى إدارة شئون الباشا فى القرية، وعملت زوجة الحارس على العناية بأمر المنزل وحدها أو بمعاونة بعض فتيات القرية.

بعد ذلك بسنوات ظهرت ألفت إمام ثانيةً، وبدأت تتردد على القرية لتساعد فوزية فى الإشراف على المشغل، وعلمنا أنها أصبحت أستاذة فى جامعة الإقليم حيث طلبت نقلها حديثًا، وأنها رُزقت ولدين من زواجها الذى انتهى بالانفصال، وكانت صداقتهما القديمة وعملها فى التدريس، والفراغ الذى تشعران به خاصةً بعد انتقال ولدى ألفت إلى العاصمة الكبرى لإكمال تعليمهما، ثم للعمل، إلى أن هاجرا إلى خرج القطر، من العوامل التي ربطت بينهما، فأصبح منزل ألفت الواسع فى عاصمة الإقليم مكانًا مختارًا لصديقتها كلما أرادت قضاء بعض الأعمال هناك، كما كانت فوزية ترحب بها وتستضيفها في منزلها في القرية في مناسبات كثيرة خاصة أثناء عطلة الصيف.

** ** ** **

عندما تم زواج فوزية الثانى من شريف بك وهو أرمل كهل من أغنى أغنياء المنطقة، فإن هذا الارتباط ساعدها على توسيع نشاطها فى القرية، ونجحت مساعيها فى إنشاء مدرستين للبنات شملتا المرحلتين الإعدادية والثانوية، وسهَّلت لها صلاتها القوية وصلة زوجها بذوي النفوذ في الإقليم، واستعداده للمساهمة فى مشروعاتها أن تُقدم مزيدًا من الخدمات لقريتنا، ولم يغير زواج فوزية كثيرًا من صداقتها لألفت، وقد لاحظنا في القرية وجه الشبه بين الصديقتين، فقد نبهتني زوجتى لهذا التشابه فى الشكل العام، حين قالت عرضًا أنّ فوزية هانم لا تشبه صديقتها فى الشكل فحسب بل وفي بعض الطباع أيضًا، وأنّ أهل القرية يخلطون بينهما في المناسبات التي لا تتيح لهم التحقق من ملامح الوجه، ولعل الشبه انحصر أساسًا في الطول والمشية ونوع الملابس وميلهما كلتاهما إلى شيء من النحافة، وكانت زوجتي

تؤمن أن طول العشرة يخلق أوجهًا للشبه، وتؤكد أن هناك فعلا تشابه واضح بين الصديقتين، ولم يخل الأمر من بعض الهمسات الماكرة التى قارنت بين ملامح ألفت إمام وفوزية، أو "الدكتورة ألفت" و "فوزية هانم" كما تعودنا أن ندعوهما، كانت الأولى تتميز بالملاحة التى اقترنت بالحزن والهدوء، بينما اتسمت الثانية بالصرامة والجدية وشىء من الاستعلاء والجفاء.

على الرغم من إحساسى أن فهمي بك لم يحسن الظن قط بصديقة شقيقته خاصة وأننا علمنا أن زوج فوزية هانم الأول كان يمت لها بصلة قرابة من ناحية الأب، إلا أنه جاملها فى أكثر من مناسبة، فقد جعل محامية يقوم بالتسويات اللازمة مع أهل زوجها بعد طلاقها منه، ثم بعد وفاته، ليضمن لولديهما حقهما فى مال الزوج، وتوسّط لتعيين ولدها الأكبر فى أحد البنوك الكبرى قبل أن يتركه للعمل خارج القطر، وقد أكدَّ بهذا أنه لم ينس أصله الريفى وأن لديه شىء من المروءة والنجدة يدفعه إلى مساعدة صديقة أخته مهما كان الخلاف بينه وبينها أو مع شقيقته، وقال لى شيخ الخفر بإبتسامة ماكرة: " لقد ورث البك شيئًا من صفات والده.. أم لعله عاد إلى ولعه القديم بالجنس الآخر، وتساءلت فى نفسى عمّا إذا كان فهمي قد أدرك سر رعاية أبيه لألفت إمام فى نهاية الأمر..!.

لا تذكر القرية لشريف بك الزوج الثانى لفوزية هانم إلا خدماته وأياديه البيضاء، فقد ظل الرجل محبوبًا طوال الفترة التى عرفناه فيها رغم قصرها، إذ ساعد زوجته فى إنشاء مدرستين للبنات فى القرية، وحتى ألفت نفسها لم تمنعها قرابتها من زوج فوزية الأول من الاعتراف بفضله، والإشادة به قبل وبعد وفاته، ترك الرجل أثرًا حميدًا فى نفوس الجميع، ولم تطل تلك الزيجة التى رضى عنها أهل فوزية وأهل القرية ورأوها مناسبة من كل الوجوه إلا أعوامًا قليلة، وما لبثت فوزية

أن عادت إلى الوحدة والوحشة، وإن زادت ثروتها أضعافاً مضاعفة بعد وفاته.

** ** ** **

لم يبق عندي من أخبار أسرة الباشا إلا ما يخص الخلاف المزمن بين فهمي وفوزية والذى عاد إلى الظهور قبيل وفاتها فى ميدانه القديم ـ فى القرية ـ فقد حاول الأخ الأكبر أن يفرض نوعا من الوصاية على أخته التى رفضتها بإصرار وواجهته بقوة، وكان الرجل يبدأ عنيفاً قاسيًا وكأنه لن ينتهى، لكنه سرعان ما يرضخ وينسحب تاركًا أخته وشأنها، وسط دهشة الجميع، كان دور أخويه الصغيرين ثانويًا فى الصراع، فقد نأيا بنفسيهما عنه بعد أن تركا أرضهما لأخيهما الأكبر يديرها ويعطيهم إيرادها، أمّا الصدام الأكبر فكان عندما إتهم فهمي أخته بأنها شجعت ابنه الأكبر على عصيانه والتمرد على رغباته، وأنها أيدته وساندته عندما قرر الالتحاق بمعهد للفنون المسرحية، كما وقفت معه فى رغبته الزواج من إحدى زميلاته ضد رغبة أبيه، ودعت خطيبته إلى منزلها فى القرية مع أسرتها عدة مرات، وزاد الطين بلة ما عرفه أخوها من نيتها أن توصى بأملاكها للجمعيات الخيرية بعد وفاتها، غير أنّ معاناتها فى الفترة الأخيرة من حياتها، ومرضها بارتفاع ضغط الدم والسكرى، دفعاه إلى تناسي أسباب الخلاف، فعادها عدة مرات مع زوجته وأولاده، ويُقال أنها أجلت رصد كل ما تملك لأعمال الخير حتى لا تثير حفيظة الإخوة، وإن لم تعدل عن هذه الفكرة نهائيًا.

ولم تتميز الأعوام الأخيرة فى حياة المرحومة بأحداث خاصة، وإن كان دور ألفت فى حياتها قد تزايد بصورة ملحوظة، وكان هذا طبيعيًا حيث أن مرضها اضطرها إلى الاعتماد على صديقتها بشكل أكبر من ذى قبل، وذلك للإشراف على المشغل والمدرستين، وكان ظهور رجل غريب قيل أنه قريب ألفت إمام، وتردده معها على منزل

المرحومة ملفتًا للنظر، إلا أن فوزية نفسها قالت لزوجة الحارس أنها تكلفه ببعض المهام المتعلقة بمساهمتها فى بعض الجمعيات فى عاصمة الإقليم، وأنه بحكم عمله كمحاسب فى أحد بنوك المدينة أخذ يسجل لها حساب التبرعات التى تودع فى حساب خاص فى البنك الذى يعمل به، كما أنه تعود ألا يحضر وحده إطلاقًا، ولم يدخل المنزل إلا مع ألفت أو برفقة محامى فوزية هانم، كما أنه تعود أن ينتظر "الهانم" فى غرفة الاستقبال وأن ينصرف فور إتمام عمله حسبما شهد الحارس وزوجته.

ظل الحال على هذا المنوال حتى وجدت المرحومة أنّ حالتها الصحية تحتاج رعاية لا تتوفر لها فى القرية، فتوجهت إلى عاصمة الإقليم بعد أن أوصت الحارس بجمع إيراد الأرض وإيداعه خزنتها الموجودة فى غرفة المكتب، كما طافت مع زوجته المنزل لتُعرِّفها المواضع التى تركت فيها مقتنياتها الثمينة حتى تضمن مسئوليتها عنها، وأغلقت أبواب الغرف وباب المنزل الرئيسى، وتركت مفتاح باب المطبخ للحارس وزوجته، كما تركت له نسخة من مفتاح غرفة المكتب وخزنة النقود.

بعد سفرها بعدة أيام حضر فهمي بك إلى القرية وقابلنى، كما قابل ناظر زراعته الذى اختاره للإشراف على أرضه وأرض أخويه، واستفسرت منه عن صحة شقيقته فأكد أنها بخير وتتحسن، كان ابنه قد سافر فى بعثة لدراسة الفن المسرحى فى أوروبا، فرأيت أن من اللائق أن أسأله عنه، رغم علمى بعدم رضاه عن اختياره لهذه الدراسة، فطمأننى شاكرًا بتكلفه المعهود، و طلب الحارس الخاص بمنزل شقيقته، واطمأن منه على أحوال أرضها ومنزلها، وقال له أنه يمكنه أن ينتقل إلى داره مع زوجته، وأن يتركا حراسة المنزل مؤقتًا حتى تعود الهانم، وشعر الحارس بالتشاؤم حين رأى هذه الرغبة منه كدلالة على أنه لا يتوقع لأخته شفاءً سريعًا، وإن ارتاح لعدم اضطراره للمبيت أمام المنزل كل يوم، فقد كانت أحوال الأمن مطمئنةً فى

القرية مما جعل وجوده بصفة مستمرة عبئًا لا مبرر له، ووعده الحارس أن يمرَّ على المنزل باستمرار، كما ظل يتصل بفوزية هانم لإطلاعها على كل ما يجدّ، وتلقى أوامراها مرة كل أسبوع.

** ** ** **

حدث بعد ذلك ما حدث، ووجدنا ضابط الشرطة بيننا من جديد، اقتحمت أسئلته كل شئون المرحومة الخاصة بصورة متحدية لم يراع فيها ـ كعادته ـ أيًا من عادات الريف وتقاليده، وأحسست رغم كل المظاهر الخادعة أنه سيعود من تحقيقاته كلها بخُفى حُنين، وأنه سيضيف إلى ما عنده سببًا آخر يحمله على التحامل عليَّ، واتهامى بعدم احترام "قانونه" أو التعاون مع رجال الشرطة، لكن هذا لم يمنعنى من أداء واجبى، فقد استدعيت من أعرفهم من المطاريد الذين أكدوا لي أن أحدًا منهم لم يكن له علاقة بموت فوزية هانم أو سرقة ممتلكاتها، وأقسم "كبيرهم" على هذا بأغلظ الأيمان، كنت أميل لتصديقهم كما أنني ـ رغم حنقي على الحارس وزوجته ـ كنت واثقا أنهما فوق الشبهات، وتساءلت رغمًا عني عن سر هدوء فهمي بك الظاهر طوال الإجراءات التي كانت ثقيلة على قلوب أهل القرية، كما عجبت لاختفاء الدكتورة ألفت إمام التي لم تحضر دفن صديقة عمرها ولا عزاءها، وتمنيتُ أن يفلح شيخ الخفر مع رجاله فى معرفة سائق السيارة التى حملت المرحومة مع رفيقتها إلى منزلها حيث قُدّر لها أن تقضي ساعتها الأخيرة وحيدة بلا رفيق أو صديق.

علمتُ أنّ تقرير الطبيب الشرعى نفى وجود علامات تدل على جريمة قتل أو إنتحار، وأنه عزا الوفاة إلى هبوط حاد فى وظائف القلب، وشمل التقرير تفاصيلاً عن حالة الجثة وقت نقلها للمشرحة لم يكن لها قيمة أو وزن، .. أصبح التحقيق الآن مُنصبًا على السرقة التى أكتشفت مع الوفاة، وسألنى شيخ الخفر بعد أن أطرق طويلاً: "هل تظن أن لفهمى بك يدًا في ترتيب الأمور بهذه الصورة ؟ " .. لم أدر بماذا أجيبه فساد بيننا صمت طويل..

فهمى عبد الرحمن

رحم الله شقيقتى التى لم ترح نفسها ولا من حولها طيلة حياتها القصيرة، فمن يصدق أنها مرت بكل هذه الخطوب، وتسببت في تلك الأحداث التى شغلتنا وإستحوذت على قدر لايستهان به من إهتمامنا ومشاعرنا، ثم ماتت ولم تتجاوز الخمسين إلا بأعوام قليلة، ولا أنسى أنها ظلت في بؤرة إهتمامات والدى الباشا طوال طفولتنا وصبانا ومطلع شبابنا، ثم جعلت من نفسها معينًا لاينضب للقلق والخلاف حتى ماتت بتلك الصورة العاصفة، فأحزننى فراقها وإفتقدتها رغم أننا نادرا ما كنا نتفق على أمر، أو تخلو علاقتنا من المكدرات والخلافات.

رغم أننى وفوزية شقيقان إلا أننا اختلفنا في كل شئ منذ البداية، فبينما بدأت هى حياتها متحدية رافضة، ثم تحولت بتأثير ظروفها إلى تلك الشخصية الناقمة المنعزلة المتعالية الحزينة، التى أورثتها تجاربها في الحياة مرارةً وميلاً إلى التكتم والتباعد حتى عن أهلها وذويها، وظلت في أيامها الأخيرة أسيرةً لتلك الذكريات تستعيدها، وتعيش فيها، حتى انعزلت تمامًا عمّن حولها، وتقوقعت داخل شرنقة من صنع أفكارها، لكنها في أواخر أيامها تحولت بصورة مفاجئة إلى شخص مختلف تمامًا، فقد أخذت تسعى إلى البحث عن الصداقة والمودة فيمن حولها، وتحاول أن تخدم مجتمعها الصغير بتلك المشروعات الخيرية التى بدأتها في القرية، ثم توسَّعت فيها، ولعل اندفاعها المفاجئ جعلها فريسة للاستغلال ممّن أحاطوا بها في تلك المرحلة، مستغلين ضحالة تجاربها وتلهفها لاقتحام ميادين لا خبرة لها بها، فخاضت معاركها "الدون كيشوتيه" التى ميزت أيامها الأخيرة باستماتة ورعونة.

لم توهب فوزية جمالاً أخاذًا ولا ذكاءً حادًا، لكنها كانت ذات إرادة حديدية، وطبيعة متسلطة، لم ينج منهما كل من عاصرها حتى أبى رحمة الله، رغم أنه سمح لها بالانطلاق بدافع الحب والرفق كيفما شاءت، وإن فعلت ذلك بصورة لفتت أنظار الفلاحين وجعلتنا هدفًا لألسنتهم الحداد، حين رأوا ابنة الباشا تركب الخيل في رائعة النهار، وتمر على العمال الزراعيين وهى في ملابس الرجال، وتمادت شقيقتى فمارست رياضة الركض على الطريق الزراعى، كما أنها تعودت أن تزور منزل تلك السيدة الأرمنية الأصل لتستريح عندها عقب هذه الرياضات التى لم تمارسها فتاة في القرية قبلها، وتصادقت مع ابنة هذه السيدة التى كانت - بالمصادفة - في مثل سنها، بل لقد صممت على دخول مدرسة للمعلمات في عاصمة إقليمنا لولا تدخل أبى الذى التزم بمساعدة والد صديقتها - كاتب المزرعة - حتى يُدخِل ابنته كلية الآداب في العاصمة الكبرى، وسعى - لدهشتى - حتى وجد مكانًا لها في سكن الطالبات الجامعى، كل هذا ليرضى أختنا، ويقنعها بالالتحاق بالكلية التى تناسبها، دون أن يحرمها من صداقة هذه الفتاة حفيدة الخواجة التي ظل يرعاها بعد ذلك وكأنها ابنته إرضاء لفوزية، ولعله وجد في رعايته لها وعطفه عليها إرضاءً لمشاعره التى كان لايحب أن يفصح عنها لأحد مهما كانت صلته به، ولم أفهم سر هذا كله إلا بعد ردح طويل من الزمن.

ظهر عناد فوزية أيضًا في إصرارها على السفر للملكة المتحدة مثل صديقتها، رغم معارضة خطيبها آنذاك، وعدم اقتناع والدى الذى خضع - لدهشتنا جميعًا - لرغبتها في النهاية، وكانت علاقتنا أثناء هذه الفترة متوترة بصورة تقرب من القطيعة، لكننى سافرت معها إلى المدينة التى تدرس بها حتى أطمئن أبى أنثى ارعاها، وظللت على اتصال دائم بها أثناء وجودى بفرنسا، رغم أنها افتعلت المشاكل والمشاجرات كلما ذهبت لزيارتها، والغريب أن صديقتها "ألفت"

كانت هى التى تسعى للصلح بيننا في معظم الأحيان، ولا أريد أن أخوض في تفصيلات لاداع لها عن هذه الفترة، ويكفى أن أذكر أن خطيب أختى الذى عين في السلك الدبلوماسى طلب منى أن أقنعها بالسفر معه إلى إحدى دول أفريقيا، لكنها رفضت، مما أدى إلى فسخ الخطبة بينهما، والغريب أنها بعد ذلك أخذت موقفاً عدائيًا من والدها ومنى دون ذنب أو جريرة .

** ** ** **

عندما عادت صديقة أختنا إلى العاصمة الكبرى فإنها عُينت بعد حصولها على الشهادة التى سافرت من أجلها في جامعتها، ووجد أبى أن عليه أن يجد وظيفة مرموقة لإبنته تشعرها بأنها ليست دون صاحبتها رغم تفوق ألفت الملحوظ في دراستها، لكن فوزية رحمها الله تركت كل شئ وانتقلت تدريجيا إلى التدريس في إحدى المداراس الخاصة، ولم أفهم سر تصرفاتها ولا ردود فعلها الغريبة طوال حياتها، ولم أر قط سببًا معقولاً يُبرر تركها لوظيفتين كلتاهما خير مما اختارته لنفسها في النهاية .

وفيما يختص بى فإنني - دون دخول في تفصيلات لامبرر لها - عشت حياتى بجميع مراحلها دون تعقيد أو سخافات، لاأنكر إنسياقى وراء أهوائى في فترة الشباب، وعدم اكتراثي بما أشاعته عنى زوجة أبى، ولا ما ظنته أختى، لكننى غيَّرت مسارى في الوقت المناسب، ونعمت بما أتاحة لى أبى من تعليم متميز، ومكانه إجتماعية وسياسية مرموقة، فبذلت الجهد في الدراسة حتى حصلت على أعلى الشهادات، وتجاهلت مشاعرى ورغباتى الشخصية لأحقق أمل أسرتى، وأحافظ على مكانتنا ونفوذنا، وبهذا فقط أيقن كل من حولنا أننى إنسان قوى جدير بالثقة، وأمكن لى أن أتجاوز ضعف أبى نفسه، وتجاوزات شقيقتى التى لم تخف عن أحد، وحتى زوجة أبى فإنها

اعترفت لى بالفضل والمروءة، وأولتني ثقتها بعد أن رأت ما فعلته من أجل ولديها ـ إخوتى ـ عقب وفاة والدنا.

تذكر أننا تشاجرنا ـ فوزية وأنا ـ مرة في شبابنا أمام أبى وزوجته، فأخذنا الباشا إلى غرفة مكتبه بعيدًا عن الزوجة والأخوة الصغار، وطلب منا أن نشرح سر هذا النقار المتكرر والخلاف الذى لاينتهى، وكانت أختنا سابقةً إلى الحديث فعيَّرتنى بما تعرفه عن "سلوكياتى" التى لم تعجبها، مثل سهرى في عاصمة الإقليم، وما يقال عن "شلة الأصدقاء" الذين أقضى معهم هذه السهرات، وكادت أن تنجرف لتحكى عما يتخيله القرويون يدور في هذه السهرات، لولا أن قاطعها أبى بحزم طالبًا منها ألا تخوض فيما لا يليق بالفتيات المهذبات مثلها، وألا تنسى أنها ما زالت مجرد طفلة لاتفقه من أمور الدنيا إلا أقل القليل، وأن الناس ـ شاءت أو لم تشأ ـ سيحكمون عليها بما تتفوه به، وكونه يناسبها أو لايناسبها كفتاة مهذبة من أسرة محترمة، لامن ناحية صدقة أو كذبة، وأمرنا أن نحجب خلافاتنا عن أخوينا حتى لا نهزَّ احترامهما لنا، وأن نراعى مكانتنا في نظر أهل القرية وكل من يعيشون معنا في المنزل، لكنه ـ رحمة الله ـ كان ضعيفًا أمامها وأمام زوجته الثانية، كما كانت ذكرى علاقته القديمة بسيدة من ساكنى قريتنا، والتى لم يعرف عنها أحد شيئًا، إلا قلة معدودة من أصدقائة، قد تركت أثارها على نفسه، وظلت مخاوفة من أن تفتضح تلك القصة القديمة تؤثر على قراراته وتصرفاته، لم أحاول من ناحيتي معرفة صاحبته القديمة، ولا ما كان يخيفه من أمرها، لكنه أفضى إلى بمكنون صدره في آخر أيامه، ولعله لم يفعل ذلك إلا بعد أن شكّ أننى عرفت بالأمر كله، وأراد أن يشرح لى ظروفه ويبرر سلوكه آنذاك، أصغيت إلى حديثه واستنكرته بقدر ما هالنى وأذهلنى، لكننى فهمت سر كثير مما لم أستطيع إدراكه في حينه، أحزننى أن أكتشف ذلك الضعف الشائن في أبى، إذ ظل حتى

آخر العمر أسيرًا لأوهام وخيالات يصعب التحقق من صحتها، وقد دفعنى هذا إلى محاولة إحتواء نتائج هذا الضعف بنفس القدر الذى سعيت فيه، إلى مداره فوزية والتستر على أخطائها.

تعودت فوزية على إتهامى بالجمود والقسوة، ولم يغضبنى هذا لأننى أدركت أنه نابع عن أحساسها بالإحباط، وفشلها المتكرر في حياتها، وشعورها أنها لم تجن من تمردها وجموحها في الماضى إلا الجراح والالام، وظل ضعفها وحاجتها إلى مساعدتى من آن لآخر يضغطان على أعصابها، ويشكلان ردود فعلها المتشنجه تجاه نجاحى في حياتى الخاصة والعامة، وما منَّ الله على به من نعم.

ظلّت فوزية دائمًا غاضبة وغير راضية، لعل حرمانها المبكر من أمنا كان سببًا، ولعل شعورها بأنها تفتقر إلى الجمال الإنثوى جعلها تسلك سلوكا أشبه بالرجال، كما زاد حرمانها من الإنجاب من حدة طباعها، لكننى واثق أن تردد أبى وضعفه أمامها هما اللذان أتاحا لهذه الصفات أن تنمو وتستفحل بغض النظر عن أسبابها .

** ** ** **

وإذا نسيت فلن ينسى الناس قصة زواجها الأول من زميلها في إحدى المدارس التى عملت بها، كانت تعلم أننا لن نرضى عن هذا الارتباط، فأخْفت كل شئ عن نيتها في مراحلها الأولى، مما يدفعنى إلى الظن أن الزيجة لم تكن سوى تعبير عن سخطها على أسرتها، ورفضها لما يفرضه وضعنا الإجتماعى عليها من قيود، ويؤكد ظنى هذا عدم الانسجام الذى كان باديًا منذ المراحل الأولى لهذا الزواج، كان الزوج قريبًا لوالد ألفت، كما علمتُ أنه عضو نشط في أحد الأحزاب المعارضة وقتها، ونشرت له جريدة هذا الحزب بعض المقالات النارية في قدح الحزب الحاكم وبيان عيوبه، وأطلقت صحيفتنا على زوج شقيقتى وأصدقاته تسميه "اليساريين المتطرفين" ، لكننا لم

نعرف عنه أى نشاط خلاف هذه المقالات في الواقع، وعندما توفى مع مجموعة من أصدقائه في حادث سيارة، فإن جريدتهم نعتهم في صفحتها الأولى وأطلقت عليهم إسم "الشهداء"، وأحاطت بالحادث - كما توقعنا - بعض الأقاويل والتلميحات تتهم الحزب الحاكم بتدبيره، وصدرت بعض الردود الساخرة من صحيفتنا بالطبع مؤكدة أن تقارير الطب الشرعى والتحقيقات أكدت أن الحادث كان مجرد قضاء وقدر، وأنه نتج عن خطأ الزوج نفسه، وهو الذى قاد السيارة في رحلته الأخيرة، ما يهمنى هو ان أؤكد أن شقيقتى لم تكن سعيدة في تلك الزيجة غير المتكافئة حسبما نما إلى علمى من أصدقائها، وضاعف عدم إنجابها من شقائها وتباعدها عن زوجها .

بعد هذا الحادث بفترة طويلة زارتنى فوزية لتشكرنى على وقوفى إلى جانبها بعد وفاة زوجها، وعرفت منها أنها ترغب فى الانتقال إلى قريتنا لتعيش هناك، ورغم أننى أخبرتها أن الأحوال قد تغيرت فى القرية، ولم يعد هناك إحترام للأسر القديمة كما كان الحال فى الماضى، وحذرتها من أن العمدة الجديد يختلف عن والده بما عرفته عن علاقاته المريبة مع المطاريد، وجنوحه إلى سلوكيات لم تكن مقبولة أو معتادة أيام كنا نعيش فى القرية، ليحقق من خلالها مصالحة بغض النظر عن أثر هذا على قريته وأهلها، إلا أنها أصرَّت على رغبتها ورجتنى أن أساعدها على الانتقال إلى هناك، فلم أجد مفرا من أن أعدها بفعل كل ما أستطيعه لأحقق لها رغبتها أملاً فى أن نفتح صفحة جديدة فى علاقتنا معًا.

سعيت فى وزارة المعارف لتعيينها فى مدرسة تقع فى المدينة الأقرب إلى قريتنا متعللاً بظروفها الأسرية، واستأجرت لها شقة قريبة من مدرستها الجديدة، وفضلاً عن ذلك، فإننى اتفقت مع أرملة أبى وأخوينا الصغيرين على أن نبيع نصيبنا فى منزل الأسرة لها، وقسَّمتُ الأرض بما يجمع لها نصيبها فى قطعة واحدة قريبة من المنزل.

وهكذا رضينا جميعًا أن نتنازل عن جزء من حقنا فى سبيل توفير الراحة و الإطمئنان لها فى مكانها الجديد، بما يليق بإبنة عبد الرحمن باشا، بل أننى كلفت محامىً بمتابعة مشاكل إحدى صديقاتها مع زوجها حين أبدت رغبتها فى ذلك دون مناقشة، راجيا أن نكون قد طوينا خلافاتنا إلى الأبد.

وكالعادة فإن فوزية ادَّخرت لى وللأسرة بعض المفاجآت، فقد إتهمتنا بمحاولة فرض وصايتنا عليها تمهيدا لأن نرثها، وبلغنى أنها تبرعت بجزء من الأرض المحيطة بالمنزل والتى تنازلنا لها عنها، لتقيم عليها مشغلاً للقرويات، وفى إحدى المناسبات أخبرتنى أمام زوجتي وأولادى أنها ستتنازل عن كل ما تملكه للجمعيات الخيرية، مهددة بأننا لن ننال من إرثها درهمًا ولا دينارًا، ورغم أننى لم أُصعِّد الخلاف بيننا وتجنبتُ الدخول فى مهاترات، إلا أنها شجَّعت أكبر أولادى على الالتحاق بمعهد للدراسات الفنية رغم علمها بمعارضتى، ودفعته إلى الارتباط بزميلة له فى نفس المعهد، وهى تعلم أن والدتها كانت تعمل كمغنية وراقصة فى أحد المسارح الرخيصة، وزاد الطين بلة أنها تنازلت عن شقتها فى عاصمة الإقليم لصديقتها القديمة ألفت التى انفصلت عن زوجها مؤخرًا، وأصبحت ترافقها فى كلِ تحركاتها فى المدينة، وقد قابلت ألفت فى إحدى المناسبات فأبدت حرصها على عدم الدخول فى مواجهة معى، وعرضت مساعيها للصلح بينى وبين شقيقتى، مؤكدةً أنها ممتنة لما فعله المحامى مع أهل طليقها بعد وفاته، مما ضمن حقوق ابنيها منه، ولم أدر مدى صدقها لكننى أعربت عن قبولى لوساطتها بينى وبين فوزية فوعدتنى بالرد علىَّ في أسرع وقت، وكانت لبقة ودودة بأكثر مما توقعت.

** ** ** **

كانت زيجة فوزية الثانية هى أول ثمرات التصالح بيننا، وشعرت أنها ربما تكون قد عادت الى رشدها أخيرًا وأرادت ان تعيش فى سلام مع نفسها ومع أهلها، وظل زوجها الثانى يقضى معظم وقته فى منزلها

إرضاءً لها، وكان منزله فى قريته القريبة أكبر وأوسع، لكن فوزية لم تحب الإقامة فيه بسبب وجود أولاده من زوجته الأولى، وأستطاع الزوج الثانى أن يترك أثرًا طيبًا فى نفوس الأهل جميعًا، إذ نأى بنفسه عن كل الخلافات بجميع أشكالها، فظل صديقًا للجميع، ولم يُقدَّر لفوزية أن تُرزق منه بأبناء مما أصابها بنوع من اليأس عبرت عنه بالإنهماك فى الأعمال الخيرية، مثل إنشاء مدرستين للبنات بالقرية، ومضاعفة نشاطها كعضو فى عدة جمعيات، ومن خلال هذا النشاط تعرَّفت بأحد أقارب صديقتها ألفت من ناحية الأم، كان شابًا قارب الأربعينيات من عمره يعمل فى أحد البنوك الأجنبية، وقد وكلته فى عمل الحسابات الخاصة بهذه الجمعيات، وظلت العلاقة فى البداية سطحية لا تتجاوز المعاملات الروتينية، وعندما مات شريف بك، وشعرت شقيقتى بالوحدة التى ضاعفتها علاقاتها المتوترة مع الجميع، كان ابنى الأكبر يستعد للسفر إلى بعثه للخارج، وانشغلت ألفت بإمتحانات كليتها مما حرمها من أقرب الناس إلى نفسها، وجعلها فى حاجة إلى من يؤنس وحشتها، ولعل هذا قرَّب بينها وبين هذا الشاب الذى كان يستكمل أوراق الهجرة الى إحدى البلاد النائية، لكن الأمر لم يتعد بعض المقابلات فى حضور ألفت فى المدينة، وفى منزلها أثناء مرضها بالقرية، وأما ما قيل عن علاقة خاصة أو زواج سرى فقد أهملته تمامًا، ولم آخذه على محمل الجد مطلقًا، فقد عانيت أنا نفسى من مثل هذه الإشاعات فى مرحلة من مراحل حياتى!.

والمهم أنها رحمها الله ظلت نهبًا لقلق لا ينتهى طوال حياتها، ورمزًا للتمرد والرغبة فى تدمير الإطار الاجتماعى لأسرتها، وعندما اكتشفت السرقة مع الوفاة، فإن حارس المنزل المذعور وزوجته اتصلا بالشرطة، وبذلك أدركت أن روح شقيقتى أبت إلا أن تودعنا فى صخب وضجة تذكرتى بخناقاتنا القديمة أمام أبى.

لا أحب هنا أن أتطرق ألى ما أعتبره فضحًا لأسرار عائلية دون مبرر، مثل ما أشاعة البعض عن سر خطبتى للدكتورة "ألفت إمام" أثناء وجودنا خارج البلاد، وتأكيدهم أن هدفى كان إثبات كذب

الإشاعات التى ربطت والدتها بأبى، كذلك فإننى لا أرى الآن ما يدعونى إلى التبرع بتقديم تفصيلات أو تبريرات لتلك العلاقة التى إنساق إليها أبى فى الماضى، فتركت ذلك الأثر المدمر على حياته وانعكست على أسرته، فما يزال يعزّ عليَّ أن أفضح نقطة ضعف خطيرة فى ذلك الإنسان الذى طالما أحببته ووقرته، ومهما حدث أو قيل فهو أبى الذى سيظل رغم كل شىء مثلا أعلى لى ولأولادى شئت أو لم أشأ، ولم يعد من حق أحد بعد وفاته أن ينبش هذه الأمور دون وجه حق، وأما فوزية فإننى آليت على نفسى أن أحميها من نفسها، وأن أمحو آثار أخطائها وإن اضطررت إلى أن أقسو على من حاولوا استغلالها والاستفادة من نقط ضعفها، سواء قبل وفاتها أو بعدها، وحتى على أولئك الذين حاولوا فضح أسرارها عن جهل وغباء، أو عن عمد وسوء نية.

ومن ناحية أخرى فإننى قد علمت بما قيل فى القرية وخارجها من أننى قد تلقيت نبأ وفاة فوزية بفتور وبرود يقربان من الإرتياح، وأن سرورى بخلاصى من مشاكلها لا يعادله إلا سعادتى بميراثى منها، وأننى لم أظهر أى نوع من الحزن الصادق لتلك الوفاة المأساوية المفاجئة، والحقيقه أننى من واقع معرفتى بظروف شقيقتى الصحية، وبمدى مرضها ومعاناتها، توقعت هذا الأمر منذ مرضها الأخير، وفى النهاية.. فإن حزنى لم يكن ليغير شيئا مما قُدر لها، وهى التى خطّت مصيرها بعنادها وتحكماتها التى كانت عبئا على نفسها وعلى الآخرين.

لكننى بعد ما حدث لا أملك إلا أن أترحم على فوزية التى ما زالت لها معزتها فى قلبى، ومهما بلغ الخلاف بيننا فإننى أدرك أنها عاشت حياة فارغة شقية، وأنَّ تصلبها وجنوحها إلى التطرف فى حياتها لم يتعبانا بقدر ما أتعباها وأشقياها، فماتت بتأثير الإجهاد والتوتر والأمراض التى أصابتها فى هذه السن المبكرة نسبيًا دون أن أراها سعيدة أو قانعة فى أى مرحلة من مراحل حياتها.

رشدى حامد

عندما أنهيت دراستى فى الكلية، اعتبر أبى الذى يعتز بالقضاء عملى فى الشرطة مجرد خطوة تمكننى من زيادة حصيلة تجاربى، تمهيدا لأن أنتقل إلى سلك القضاء، ولم يعترف أبدًا بفشل مساعيه فى هذا السبيل، كنت إبنه الوحيد الذى ظل الأمل يراوده فى أن يكون القاضى رقم ٤ فى العائلة، كان أبى قاضيا ـ كما دأب على وصف نفسه ـ أبًا عن جد، ولم يكن من المغمورين في سلك القضاء، إذ سجَّل لنفسه مواقف مشهودة، آخرها عندما تولى إحدى القضايا السياسية الشهيرة، ورفض الخضوع لضغط وزير العدل آنذاك، وكان حكمة حاسمًا ضد رجال جهاز الأمن القومى، حين قضى ببراءة المتهمين، وأدان سبل القبض عليهم، والتجاوزات التى إرتكبها رجال هذا الجهاز أثناء إستجوابهم، ولم تطق السلطات صبرًا فعاقبته بنقله إلى الشئون القانونية فى إحدى الوزارات، وعندما تولت حكومة حزب الأغلبية الحكم أعادته إلى مكانه فى سلك القضاء، ورقى حتى وصل إلى رئاسة محكمة النقض، مما جعله يقول لى فى فخر وثقة: "إن أباك كان يوما ما قاضى قضاة القطر".. وبعد إحالته المبكرة إلى المعاش، افتتح مكتبًا للمحاماه فى عاصمة الإقليم الذى عُينت فى أحد مراكزه معاونًا للمباحث.

كانت أصولنا ترجع إلى هذه المنطقة، فقد نشا والدى فى قرية قريبة من القرية التى عاش فيها عبد الرحمن باشا مع أسرته، وعرف إبناه من زوجته الأولى فهمي و فوزية، وطالما أفاض فى وصف المتاعب التى قاسى منها الباشا بسبب خلافات فوزية مع فهمى، وقد إفترض أن قرار الوالد بإرساله إلى فرنسا لدراسة القانون كان موفقًا، وحكى بعض ذكرياته القديمة مع فهمي عبد الرحمن، عندما حضر كطالب

مستجد لدراسة القانون فى السوربون، وكان والدى يستعد للحصول على درجة الدكتوراه من نفس الجامعة، وظل يتمتع بأن يفيض فى سرد ما تعرض له من إغراءات بالعمل والبقاء جعلته يمكث لمدة طالت حتى بلغت العامين، مترددا بين البقاء فى فرنسا والعودة إلى عمله فى كلية الحقوق، كما قابل فى تلك الإثناء فوزية وألفت عندما حضرتا بدورهما للدراسة فى المملكة المتحدة التى زارها قبيل عودته إلى الوطن نهائيا ليعمل فى سلك القضاء، مفضلاً ذلك على التدريس فى الجامعة، ولا يلبث أبى أن يضيف أن التغيير الذى طرأ على شخصية فهمي بعد عودته كان مذهلا، فقد تحول من شخص مستهتر لا يهتم إلا بإشباع رغباته والجرى وراء نزواته، إلى رجل مُحنَّك صعب المراس يسعى إلى دخول البرلمان والمشاركة بفعالية فى الحياة السياسية للقطر، لكنه من ناحية أخرى أصبح قاسيًا لا يعرف الرحمة فى التعامل مع أعدائه، وإن غدا معروفًا ـ ولو ظاهريًا ـ بالالتزام فى حياته الخاصة، أما ألفت وفوزية فقد كان يرى أنهما تعرضتا لكل أنواع سوء الحظ، وعندما علم بوفاة الثانية قال فى حزن وثقة: "لعلها تشعر الآن لأول مرة بالراحة...!

ومن الغريب أنه أوصانى ألا أحاول مواجهة قوى لا أقدر على دفعها مكررا: "أن الزمن غير الزمن.. وقد عرفنا قديما أعداء الحق وأصدقاءه، أما الآن فكل شىء غامض، والفساد قد نخر فى عظام المسئولين حتى النخاع، والحق ضائع كاليتيم في مأدبة اللئام".

** ** ** **

كثيرا ما أطلعت أبى واستشرته فى كل ما أقابله من قضايا وتحقيقات من خلال عملى، فقد أخبرته بأمر المدرِّسة التى أبلغ خالها عن غيابها، وذكرت له أن والدها وإخوتها لم يظهروا قلقًا أو جزعًا، وأكدوا أنها تعودت على السفر فى رحلات مع زميلاتها، وكانت هذه أول حادثة فى القرية التى عاش فيها عبد الرحمن باشا وأسرته، والتى

طالما سمعت عنها من أبى، وقبل أن أذهب إلى القرية حضر أحد الخفراء مع خال المفقودة، وأبلغانى أنهما يشكان أن الفتاة قتلت ودفنت فى جرن القرية أمام منزل العمدة مباشرة، ونصحنى أبى ألا أتعب نفسى كثيرا فى محاولة العثور على الجثة، وصارحنى أنه يظن أن الفتاة قد قتلت بدافع الشرف، وهذا يجعل العمدة ورجاله مضطرين إلى التستر على القاتل الذى لابد أن يكون أحد أقارب الفتاة، وصدق ظنه تمامًا فقد تظاهر العمدة بالتعاون الكامل وساعدنا فى حفر الجرن ركنا ركنا، وبعد أن أيقنا بفشل مسعانا، صمم على دعوتنا لوجبة دسمة على فراندة منزله أو " الشكمة" كما كانوا يدعونها، وكنا قد أشرفنا على عملية الحفر والتنقيب على الجثة من فوقها.

وعقب عودتنا إلى المركز بعد المغرب حضر الخفير المبلغ نفسه ثانية، وأقسم بأغلظ الأيمان أن الجثة نقلت من مكانها ودفنت تحت بلاط الشكمة قبيل حضور القوة بساعات قليلة، وأن العمدة فرش السجاد فوق البلاط حتى يخفى الأسمنت الذى كان ما يزال رطبا، وعدنا أدراجنا إلى القرية، وكان الدم يغلى فى عروقى لخداعى بهذه الطريقة التى أحسست أنها لا تخلو من سخرية، لكننى فوجئت بالشكمة محفورة بالفعل، وحضر العمدة ليخبرنى أنه تلقى بلاغا أن الجثة مخبئة تحت البلاط مما دعاه إلى التفتيش عنها، وإنه لم يجدها قبل أن يعيد الخفير استدعائنا، وأدركت أن الجثة قد أعيد نقلها إلى مكان آخر فى غيبة الخفير الواشى، وأن العمدة يسخر منى للمرة الثانية.

ضحك أبى عندما حكيت له ما حدث، وذكّرنى بنصيحته لى بهذا الخصوص، وأخذ يقارن بين العمدة الحالى ووالده، وخلص إلى الفرق بينهما مثله مثل الفرق بين زمنين أو اسلوب عصرين مع بقاء القيم والتقاليد كما هى.

** ** ** **

عرفت عن العمدة ما لم يخطر لأبى على بال، كانت صلات الرجل بالمطاريد أعمق وأكبر مما ظنناه فى بداية الأمر، فقد عرفت بطريق الصدفة البحتة أنه يمول تجارة السلاح التى يديرها كبيرهم، ويبدو أن الأرباح الطائلة التى جناها العمدة جعلته يتغاضى عن أن تجارة السلاح ليست رائجه فى كل الأوقات، ويقبل أن يستغل جزء لا يستهان به من أمواله فى تجارة المخدرات، وكان " ميثاق الشرف " الذى يراعيه المطاريد مع ممولهم هو ألا تطأ الأسلحة أو المخدرات أرض قريته بصورة من الصور، كما علمت بتورط شيخ الخفر الذى شارك فى هذه التجارة، وتعوَّد أن ينوب عن العمدة، و يأخذ القرارات فى غيابه، ولم يكن هناك سبيل إلى قطع هذه الدائرة الخبيثة إلا ضرب المطاريد فى الجبل، أى فى عقر دارهم ووسط قلعتهم الحصينة، ولم يكن المسئولون للأسف مهيئين لهذا فى واقع الأمر، فقد صرح لى أحد كبار ضباط الشرطة من رؤسائى أن هذا الهجوم لابد أن يكون ناجحًا بنسبة مائة فى المائة، وأن أى فشل معناه انهيار التوازن القائم بين المطاريد بنشاطهم الخفى وابتعادهم عن المدن والقرى القريبة من المركز، وبين سكوت الجهات المسئولة عمّا يمارسونه لكسب عيشهم، على أن يتم خلسة وخفية، وهذا الإنهيار يؤدى لكسر قواعد هذه المعادلة وإلى مواجهة علنية عنيفة يدفع الأهالى ثمنها، ولا يمكن تجنبها أو التخفيف من آثارها، وطالما أنّ القضاء على المطاريد جميعًا يتطلب إمكانيات تفوق المتاح حاليا، فإن هذا الهجوم لابد أن يؤجل حتى يتم التنسيق بين رجال الشرطة وقواتهم من ناحية، وقوات إضافية من الجيش بإمكانياتهم الفائقة من ناحية اخرى، وطبعا فإن إقناع المسئولين باتخاذ مثل هذا القرار ليس بالأمر السهل.

وإلى أن يشعر حكام القطر بضرورة مثل هذا التحرك فسوف يظل العمدة ورجاله ينعمون مع المطاريد بثمار تجارتهم المحرمة ولو كره الكارهون.

الغريب أن بعض رجالنا أكدوا لنا أن العمدة يقود حملة " دعائية " موجهة ضد رجال الشرطة (وأنا على رأسهم) متهمًا إيانا بعدم احترام العرف، وازدراء التقاليد والقيم التى عاشت بها هذه المنطقة طويلاً، كما خصَّنى بتهمة التسرع والشطط والعنف، وأننى أحقد على العائلات الكبرى خاصةً إذا كان لها تاريخ قديم وأصل عريق، وقد عانيت إلى حد ما من جراء هذه الأقاويل قبل حادثة وفاة السيدة فوزية عبد الرحمن شقيقة فهمي بك، وكانت قد وُجدت ميتةً بالقرية عقب وصولها إلى منزلها فى الليلة السابقة عائدة من عاصمة الإقليم، وأبلغ حارس المنزل وزوجته كذلك عن بعض السرقات.

** ** ** **

بدأت عملى فى حزم وحرص حتى لا أدع للأقاويل أن تثنينى عن اتخاذ كل ما من واجبى أن أفعله فى مثل هذه الحالات، وضعت منزل المرحومة تحت الحراسة المشددة حتى حضر الطبيب الشرعى الذى شارك فى فحص الجثة فى مكانها، كما رُفِعَت البصمات عن كل ما أحاط بفراش السيدة فوزية ومن باقى الغرف ومن غرفة المكتب والخزنة، ولم نعثر إلا على بعض دفاتر الحسابات مع مجموعة من الصحف والمجلات.

فتشنا باقى المنزل دون أن نظفر بشىء له قيمة، ووافق فهمي بك علىٰ قيام الطبيب الشرعى بتشريح الجثة، وقال لى أنه إنما فعل ذلك حرصا على أن يتأكد أن وفاة شقيقته طبيعية، وحتى لا تساوره الشكوك مستقبلاً هو أو سائر أفراد أسرتها فى أنها قد تكون تعرضت للقتل على يد أحد اللصوص، ودعاني إلى التركيز على هذه النقطة، وعدم الخوض فيما لا داع له من خصوصيات أخته وأسرتها، ولا شك أن نفوذه كان له أكبر الأثر فى تعجل الإجراءات، حتى تم دفن السيدة فوزية، وحفل سرادق العزاء بالشخصيات المعروفة مع مُشاركة كبيرة من رموز الحزب الحاكم والوزراء.

** ** ** **

علمت من استجوب الحارس المرتعب وامرأته أن سيدتهما كانت غائبة فى عاصمة الإقليم للعلاج، وأنهما تغيبا فى الآونة الأخيرة فقط عن المنزل بناء على إذن من فهمي بك شقيقها، لكنهما كانا على اتصال دائم بالمرحومة التى كانت مقيمة فى شقة صديقتها ألفت، وأن الحارس أخبرها أنه حصَّل بعض الإيجارات من مزارعى أرضها فطلبت منه إيداعها الخزانة الموجودة فى غرفة مكتبها، كما طلبت أن يجعلا المنزل فى القرية جاهزًا لاستقبالها لأنها قد تعود فى أية لحظة، وقبل الوفاة سافر أبن فهمي الأكبر الذى كان كثير التردد على عمته ـ كما علمنا ـ إلى الخارج، كما أن صديقتها ألفت سافرت إلى العاصمة الكبرى لمقابلة إبنها الذى حضر فى زيارة قصيرة، وقد فكّر الرجل وزوجته فى زيارتها، وعرضا عليها الأمر هاتفيًا، لكنها أخبرتهما أنها ستعود قريبا إلى القرية، وطلبت منهما ألا يتكلفا مشقة السفر دون داع، وعندما علما بوصولها فى تلك الليلة أسرعا إلى المنزل، فوجدها لم تشعل نور الحديقة كعادتها، كما أن السيارة التى أقلتها كانت قد انصرفت، ولم تجبهما عندما طرقا باب المنزل، ففضلا الانتظار للصباح ظنًا منهما أنها نائمة.

أكّدت زوجة الحارس أنها لم تدخل المنزل إلا فى صباح اليوم التالى لإيقاظها، وأنها فوجئت بعد صدمة وفاة سيدتها بخزانة الملابس مفتوحة ومصاغها مفقودة، كما اكتشف زوجها أنّ خزنة النقود فارغة، وعندما أفاقت من الصدمة، وبدأت تستوعب ما حولها سارعت مع زوجها إلى الاتصال بالشرطة على عجل، خوفًا من أن يتسبب التأخير فى ضياع معالم أيةجريمة قد تكون اُرتكبت، ونفيا كلاهما أن يكون للمرحومة أية أعداء، أو أنهما يشكان فى أحد بصفة خاصة.

أستجوبنا الرجل الذى شاهد السيارة التى حملت المرحومة إلى منزلها للمرة الأخيرة، فلم يتذكر رقمها،ولا ملامح السائق، ولا وجه

مرافقة المرحومة، لكنه لاحظ كبر حجم الحقيبة التى حملها السائق فى صعوبة بالغة، ولم يستطع تقدير الفترة التى قضتها السيارة أمام المنزل، لكنه قال أنها وصلت بعد صلاة المغرب حين ساد الظلام القرية.

باءت محاولات العثور على سائق السيارة أو الاستدلال على مكانه بالفشل، وجاء تقرير الطبيب الشرعى، فأرجع سبب الوفاة إلى هبوط فى القلب، وأفاد أن هناك آثار سحجات فى الظهر والفخذين، وكان توقيت الوفاة كما قدره الطبيب الشرعى غير دقيق، مما عُزى إلى حرارة الجو الذى ربما أدى إلى إسراع التغييرات التى تعقبها، كان التقرير مختصرًا للغاية بسبب تعجل الدفن.

أخبرت أبى فى المساء بما وصلت إليه، فإتفق معى على أن العمدة لا يتعاون بقدر يظهر، وأنه وراء إحجام كثير من أهل القرية عن الإدلاء بشهاداتهم، وطلب منى ألا أتسرع وأن أكون صبورًا، وتوقع أن أصل إلى الكثير من الحقائق بعد استجواب طبيب المرحومة وصديقتها ألفت، وكل من تعامل معها فى الأيام الأخيرة من حياتها، ودعانى إلى التفاؤل لأن هؤلاء الناس بعيدون عن تأثير العمدة ورجاله، وأضاف فى لهجة ذات مغزى: "أنهم قد يكونوا بعيدين عن تأثير فهمي بك أيضًا".. وشعرت أنّ حديثي معه لم يبدد حيرتى، فظللت نهبًا للهواجس حتى ساعة متأخرة من الليل.

** ** ** **

تأخر حضور الدكتورة ألفت من العاصمة، وظلت شقتها مغلقة، وأكد حارس المنزل أنها سافرت بعد وصول صديقتها فوزية بحوالى عشرة أيام، أى أنها تركت فوزية فى الشقة قبل سفرها لقريتها بحوالى الأسبوع، وإتجهت إلى العاصمة الكبرى لتقابل إبنها الذى حضر فى زيارة قصيرة للقطر، بعد يومين حضرت إلى مكتبى سيدة

فى أوائل الخمسينيات متشحةً بالسواد،كانت هذه أول مرة أراها فيها، أظهرت ملابس الحداد بياض بشرتها المشربة بإحمرار خفيف، ورغم علامات الحزن والاستسلام، فإن ملامحها ولون شعرها وعينيها وتقاطيع وجهها الدقيقة بدت متناقضة إلى حد ما مع ملابسها الشرقية المتحفظة، ولم يمنع جو التحقيق المنهك عيناى من ملاحظة بعض مظاهر الضيق والضجر والحذر التى بدت على وجهها، وجعلتنى أحس أنها تخفى من الحقائق أكثر مما تبوح به.

لم يزد ما أدلت به من أقوال عما جاء فى أقوال العمدة وشيخ الخفر وحارس المنزل وزوجته، كانت والمرحومة صديقتين حميمتين لفترة طويلة، قويت العلاقة عندما تزوجت صديقتها من أحد أقرباء أبيها، وعندما عادت فوزية لقريتها بعد وفاة الزوج فإنها شاركتها نشاطها فى القرية وخارجها، مثل رعاية المشغل ومدرستى البنات، وبادلتها فوزية شعورا بشعور ورعاية برعاية، فوقفت إلى جانبها عندما انفصلت عن زوجها، وعاونتها فى إيجاد شقة مناسبة لها ولولديها، وعندما تزوجت صديقتها من شريف بك فإنها عهدت إليها برعاية الجمعيات الخيرية التى أشتركت فيها فى فترات غيابها.

خلال معاناتها الصحية الأخيرة فإن فوزية فضلت البقاء فى شقتها هى فى عاصمة الإقليم، رغم أن طبيبها كان قد أوصى بنقلها إلى المستشفى، كانت المرحومة تحس مع صديقتها بالراحة والإطمئنان، وحضر أخوتها مع أسرهم لزيارتها عدة مرات أثناء مرضها، واتفق فهمي بك مع الطبيب على أن يختار ممرضة لرعايتها، كما أنه أحضر فتاة عن طريق حارس العمارة لتنظيف المكان والعناية بمأكل أخته وملبسها، ولم تمانع الدكتورة ألفت برغم أن هذا الوضع اقتحم خصوصيتها، لكنها كانت تعتبر المرحومة أختًا لها، ولولا أن أبنها عاد فجأة فى أجازة إلى العاصمة الكبرى لما كانت قد تركت فوزية وهى فى هذه الحالة، لكنها اطمأنت إلى رعاية الطبيب المنتظمة

ووجود الممرضة والخادمة، وإنتوت أن تعود فى أسرع وقت ممكن لولا أنها أضطرت للبقاء فترة أطوال مما حسبت فى العاصمة، وعندما عادت علمت بوفاة صديقة العمر بعد أن تركت شقتها عائدة إلى القرية لآخر مرة، وكأنها اختارت أن تموت هناك...

كنت قد رأيت فوزية هانم قبل ذلك فى لقائين عابرين فلاحظت الشبه الواضح بينها وبين صديقتها فى الطول والقوام والمشية، ورغم اختلاف ملامح الوجه ولون الشعر والبشرة، إلا أن الناظر لا يستطيع التميز بينهما إلا عن قرب، خاصة إذا إرتدت الدكتورة تلك الطرحة التى غطت بها لون شعرها، ولا شك أن الطبيعة جادت على ألفت بنصيب وافر من القسامه والملاحة ينم عن جمال أخاذ فى أيام الشباب، فتذكرت ما تميَّزت به ملامح المرحومة من جهامة وصرامة اختلطا بشىء من التعالى.

ظل الحزن والقلق مرتسمين على وجه ألفت وهى تودعنى برغم الإبتسامة الشاحبة التى كانت تضىء وجهها من حين لآخر، وخالجنى شعور بأنها تخفى عنى سرًا لا يعرفه أحد سواها، ودعوَّت الله ألا أخرج من هذا التحقيق صفر اليدين كما يتمنى معظم من قابلتهم من أهل القرية، وعلى راسهم العمدة وصديقه شيخ الخفر.

** ** ** **

على عكس ما توقع أبى فقد كان لفهمى بك بصورة غير مباشرة تأثيرًا حسنًا على سير التحقيق، فإن توتر علاقته بإبنه الأكبر كانت وراء حرص الأخير على الحضور للإدلاء بأقواله، قرر الإبن أنه كان فى بعثه لدراسة الفن المسرحى عندما بلغته وفاة عمته، فعاد برغم أن الوقت كان حرجًا بالنسبة لدراسته، لكنه لم يستطع أن يؤجل حضوره، ولا أن يهون على نفسه، خاصة أن عودته القصيرة لن تغير شيئًا مما حدث، واعترف أنّ والده دأب على محاولة إملاء رغباته

وآرائه على الجميع، ولم يطق رفض شقيقته لوصايته عليها فيما يتعلق بأرضها التى ورثتها عن أبيها وزوجها شريف بك، وأن هذا أثار ثائرتها وكان سببا فيما أعلنته عن نيتها التبرع بأرضها للأعمال الخيرية كرد فعل ورفض لهذه الوصاية، خاصة وأنها علمت بنيته بيع أرضها وأرضه إلى أحد أقربائهم مقابل ثمن مغر، وذلك حين شرع فى إنشاء شركة خاصة به، وأكد أنّ طباع عمته التى بدت حادة ومتصلبة إنما انفجرت نتيجة لشعورها أن أخاها حريص على مصالحة هو أكثر من حرصه على علاقته الإنسانية بها وبالآخرين.

وعرَّض فى أقواله بالدكتورة ألفت التى كان يستغرب ثقة عمته فيها وحبها لها، وأضاف أنها ـ حسبما يظن ـ كانت تلعب دائمًا دور حمامة السلام بين أبيه وعمته لأغراض بعيده تماما عن ظاهر الأمور، كما أنها كانت تستغل عمته إلى حد ما، إذ لاحظ أنها كانت تحرص على أن تكون هى الفائزة فى النهاية فى كل معاملاتها معها، وصرَّح أنها كانت تتعامل مع أبيه نفسه بنوع من الألفة وكأنها أحد أفراد العائلة، وحاولت أن تكسب ثقته وأن تنتفع من وراءه..!.

تمنيت بعد شهادة الفتى أن أجد السائق المفقود، أو أن يهدى الله العمده أو أصدقاء المرحومة وأخوتها حتى يطلعوننى على ما يرشد خطاى إلى السبيل المستقيم، ودعوته سبحانه وتعالى ألا أضطر إلى تسليم ملف القضية إلى وكيل النيابة وهى بهذا الغموض والتفكك.

ذهبت لمناقشة زميل دراستى القديم، وكيل النيابة الذى كنت أتوسم فيه الصدق رغم ميله إلى التفلسف بعض الشىء، وحدث ما توقعت تمامًا فقد نصحنى ألا أتجاوز حدود سلطتى، وأن ألتزم اللباقة والحصافة فى كل خطواتى، وبعد أن أكد علىَّ ألا أخوض حروبًا "دون كيشوتيه" لا مبرر لها ولا طائل من ورائها، قال شيئًا مفيدًا فى النهاية إذ طلب منى أن أحاول ان أسجل كل شهادة أجدها مفيدة على شريط تسجيل (كاسيت)، بالإضافة إلى تدوينها وتوقيع الشاهد عليها

كالمعتاد فى محضر مؤرخ ومعتمد، وقد إتَّبعتُ هذه الطريقة مع الطبيب المعالج لفوزية عبد الرحمن، وكذلك مع مأمور الشهر العقارى الذى حضر من تلقاء نفسه.

قال الطبيب أن حاله السيدة فوزية شُخصت من البداية على أنها ارتفاع مفاجىء فى ضغط الدم، وأنه نصح بإدخالها المستشفى على الفور لعلمه انها كانت تعانى من ارتفاع السكر فى الدم وقصور الشرايين التاجية، وذلك حتى يتم التحكم فى حالتها ومتابعتها بالأبحاث، وأن المريضة فضلت البقاء فى منزل صديقتها مع تناول العلاج، ورغم أن أخاها فهمي بك حضر بعد ذلك وأدرك خطورة الحالة، إلا أنه لم يضغط عليها أو لم يستطيع إقناعها، وترك لها أن تقرر ما تراه أنسب لها،لكنه طلب بقاء ممرضة ذات خبرة فى هذه الأمور معها حتى تشرف على تناولها العلاج، وأفاد أن حالة السيدة فوزية لم تكن تسمح لها بمغادرة المنزل حين تركها أخر مرة، وأنه أوصى أحد زملائه بالإشراف على الحالة لحين عودته من مؤتمر طبى عقد قبل وفاتها، وعند عودته فوجىء بخبر وفاتها، وقال ان زميلة أخبرة أنها لم تسمح له بزيارتها سوى مرة واحدة كانت حالتها أثناءها مستقرة، لكنها كانت تشكو من الأرق، أمّا بعد ذلك فقد اعتذرت له بحجج شتى، وقال له أنه بالطبع لم يصرح لها بالعودة إلى القرية أو الخروج من المنزل أصلاً.

أما مأمور الشهر العقارى فقد حضر عندما علم بوفاة فوزية، وقال أنه قابل المرحومة فى مكتب الشهر العقارى بعاصمة الإقليم حيث سجلت عقدًا باعت فيه أرضها ومنزلها إلى أخوها فهمى، وأن فهمي بك كان ينتظرها فى سيارته لكنه لم يدخل المكتب معها بل حضر فى اليوم التالى مع محاميه فلم يلبث طويلاً، وترك المحامى يتابع تسجيل العقد بتوكيل عام منهما.

عندما رأى الرجل صورة فوزية فإنه نظر إليها بحيرة قبل أن يقول أنها كانت ترتدى طرحة سوداء تخفى معظم وجهها، لكنه لم يستطع الجزم أنها هى من حضرت للشهر العقارى، كان تاريخ عقد التنازل يرجع إلى ما قبل سفر فوزية إلى القرية بيوم واحد، مما تركنى فى ارتباك شديد وبدت الأمور أكثر غموضًا فى نظرى عن ذى قبل.

عدت فى سيارتى بعد أن سجَّلتُ رقم وتاريخ الملف تمهيدا لتسليمه للنيابة، واحتفظت لنفسى بصورة منه مع الشريط الذى سجلت عليه شهادة الطبيب ومأمور الشهر العقارى، وعزمت على أن أعرض الأمر على أبى وأن أشاوره فى الأمر عسى أن أخرج من حيرتى...

** ** ** **

أطرق أبى طويلاً بعد أن سمعني، وقال لي أنه يعرف محامي فهمي بك لكنه لا يظن أنه سيفيدني فى شيء، ونصحني أن أسأل سائق فهمي الخاص الذى كان يعمل قبل ذلك مع أحد أقربائنا، وفى النهاية سألنى بصراحة: "هل تشك فى أن وفاة فوزية لم تكن طبيعية..؟!"..

وترددت فى الإجابة، و لابد أن إمارات العجز ظهرت على وجهي، فعاد يقول: "لقد استغربت عندما رأيت اهتمامك مُنصبًا على الأحداث التي سبقت وفاتها، وظروف هذه الوفاة وكأنك نسيت موضوع السرقة تمامًا..!!".

تحدثت مع أحد المحامين الصغار من مكتب محامى فهمي بك، وقابلت السائق الذى أشار على به أبى، فأصبح لدى رصيد من التسجيلات لا بأس به عند عودتى لمكتبى، أرفقت صورة الملف مع الشرائط فى مظروف أرسلته إلى مكتب أبى مع أحد الجنود، وأخذتنى بعض الأعمال اليومية الروتينية حتى كدت أن أنسى موعدى مع صديقى وكيل النيابة فى نادى القضاة، حيث نوينا تناول الغداء

سويًا، وفى الطريق إلى النادى أحسست كأن فرامل السيارة لا تعمل، فحاولت إبطاء السرعة تدريجيًا، لكنني وجدت نفسي أندفع إلى جانب الطريق حتى أتجنب سيارة ضخمة أتت مسرعة من حيث لم أتوقع، استخدمت فرملة اليد فى محاولة يائسة لإيقاف السيارة قبل أن أفقد الوعى تمامًا.

عندما أفقت وجدت نفسي في غرفة صغيرة ورائحة أدوية التخدير تتخلل أنفي، وصداع قاتل يكاد يفتك برأسى، استسلمت للنوم لكنني استيقظت بعد فترة لأجد أبي يبحث عن مفتاح المصباح الكهربائى لينير الغرفة، أشرت بيدي إلى مكان المفتاح فشعرت بألم يجتاح ساعدى صاعدًا إلى كتفى، وأحسست بالأربطة التى تحيط ذراعى الأيمن وتلف ساقى الأيسر، حضر الطبيب مساءً، كنت قد غفوت ثانية ثم استيقظت على صوت الممرضة تتلو عليه ما تناولته من حقن وأدوية، وفتحت عينى لأجدها واقفة بجواره بينما راح هو يشرح لأبى شيئًا عن حالتى، لاحظ الرجلان عينى المفتوحتين فتسابقا فى طمأنتى وبث الثقة فى نفسى، سألت أبى عن صورة الملف والشرائط فطمأننى أن كل شىء قد وصله، أغمضت عينى وأنا أدعو الله ألا يكون ما حدث لى سيتركنى عاجزًا أو يُخلف لي عاهة أو إعاقة.

لم أحس أنني فى طريقى إلى استعادة حواسى بصورة مطمئنة إلا صباح اليوم التالى، كان أبى جالسًا يُغالب النوم على مقعد بجوار فراشى، فلم أتمالك أن سائلت نفسى عمّا إذا كان هناك شيء فى الدنيا يساوى ما أنا فيه الآن، وما يعانيه أبى فى سنه هذه من قلق ولهفة، حكيت له عن بعض ما قاله المحامي والسائق حتى أسري عنه لكن محاولتى لم تفلح، ظل وجهه عابسًا متجهمًا كعادته إذا ما نوى أمرًا لا يريد أن يطلعنى عليه،

رجوته أن يتمدد على أريكة خصصت للمرافقين، فلم يأخذ بنصيحتى إلا بعد إلحاح، وراح يحكى لى عن ذكرياته بذهن شارد

فتأكدت أن هناك ما يشغله بالفعل، ضعف صوته شيئا فشيئا فأدركت أنه يغفو رغما عنه.

سرت إلى عدوى النعاس فرأيت فى منامى العمدة ورجاله يتحدثون، وقد جلسوا فى منزل فوزية عبد الرحمن، عن سر غاب عنى وأعيانى الوصول إليه، وعندما اقتربت من الجمع فوجئت بهم ينفجرون فى قهقهة رجت أرجاء المنزل، آلمتنى سخريتهم وكدت أنسحب لولا أننى اصطدمت بإنسان كان يقف خلفى، استدرت فوجدت نفسى فى مواجهة ألفت إمام التى ابتسمت معتذرة وسارت مبتعدة، حاولت ملاحقتها لكنها أشارت إليّ محذرة وعلى وجهها نظرة غاضبة، فجأة تبينت أنها هي المرحومة نفسها، تبدلت ملامح الوجه وتغير لون الشعر وانسحبت أطرافها حتى بدت كفقاعة ما لبثت أن انفجرت تاركة رذاذًا خفيفًا على وجهى، استدرت ناحية العمدة ومن أحاط به من الخفر فرأيتهم يتوارون وقد حمل كل منهم شيئًا من محتويات المنزل، انحبس صوتى وضعفت أطرافى فلم أحرك ساكنًا أو أنبس، واستيقظت على صوت أبى يوقظنى فى رفق بعد أن أقلقته حشرجة صوتى وحركتى القلقة، سألنى باسمًا عمّا أزعجنى فاعتدلت فى جلستى حتى لا أزيد من توتره، سمحوا لي بكوب من العصير كنت في حاجة ماسة إليه، وعاد أبى يحكى لي عن بعض ذكرياته.

** ** ** **

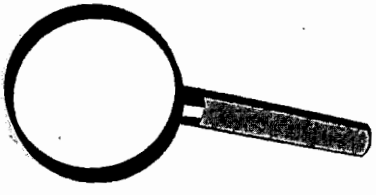

ألفت إمام

بدأت جذورى فى القرية عندما تجاسرت ابنة الخواجة الثرى فأحبت "إمام أفندي صابر" الذى يعمل عند أبيها، مما أثار القيل والقال فى قريتنا، وقد سمعت عن أمى كل أنواع القصص التى يمكن أن تروى عن مثل هذه الزيجة فى قرية من ريف القطر، فمن الناس من يؤكد أن المسألة تعدت كونها قصة حب برىء، وأن الفتاة الصغيرة إنجرفت وراء عواطفها فلم يكن أمام أبيها إلا الموافقة على زواجها من إمام الذى لم يكن يرضيه كصهر قط، أما من كانوا قريبي الصلة بأسرة الخواجة فيؤكدون أن الزواج تم بعد ممانعة من الأب إذ أضطر فى النهاية إلى الرضوخ لرغبة إبنته التى أفصحت عن عدم اكتراثها حقى لو انتهى الأمر بأن يحرمها من ميراثها منه، وأن تقطع صلتها نهائيا بإسرتها، فغادر القرية مع جدتى وأخوالى، ولا أدرى هل كان هذا من حسن الطالع أم عقابًا من السماء لأمى على عقوقها وعنادها، دفعنا نحن ثمنه بعد ذلك، ولا داعى لذكر تلك القصة الخرافية عن عبد الرحمن باشا، والتى أكّدت لى والدتى أنها محض افتراء واختلاق، وأن بعض النسوة رددنها كراهيةً فى أسرتها وخاصةً والدها.

نشأت فى أسرة شبه معدمة، إذ عمل أبى بعد أن سكن القرية مع زوجته فى مزرعة عبد الرحمن باشا، وظل يعمل بها حتى اضطر لترك عمله فى النهاية بسببي، ورحل مع والدتي وإخوتى إلى عاصمة الإقليم حيث وجد عملاً بديلاً بعد ذلك بفترة، ولعل أكثر ما سبب الألم لوالدىَّ هو أنهما لم يصدقا فى أول الأمر أن الخواجة ـ جدى ـ سوف ينفذ وعيده، ويحرم ابنته من نصيبها فى ميراثه، وظلا ردحًا طويلاً يحلمان بعودة جدى الغاضب، أو أحد أخوالى للقرية حاملاً معه ما

ينقلهما من العوز والفقر إلى طبقة ميسورى الحال، ذلك الحلم الذى لم يتحقق أبدًا، وعندما حضر أبن خالى أخيرا بعد أن كاد العمر ينقضى، لم يحمل معه إلا أسوأ الأخبار، كان جدى قد مات بعد أن أفلست تجارته وضاعت مدخراته، وعمل أفراد الأسرة فى أعمال صغيرة ليعولوا أنفسهم، ثم لحقت جدتى بزوجها بعد فترة قصيرة عانت خلالها من المرض والحاجة، كما عانت من القهر، وتركت أبناءها يجاهدون لتدبير معاشهم، ولم يفكر أحد أخوالى فى الاتصال بنا وكأنما ورثوا مع الفقر تحجر قلب أبيهم وقسوته، أو لعلهم لم يجدوا فى أنفسهم الجرأة على مقابلة أختهم بعد أن أصبح حالهم لا يفضل حالها بشكل من الأشكال.

عُرفت في القرية كإحدى الطالبات الفقيرات في مدرستها الإبتدائية، ولم يميزنى عن زميلاتى إلا تصميمى على إكمال تعليمى وحرصى على التفوق، شعرت أننى فيما عدا هاتين الصفتين أقل من زميلاتى في كل شئ تقريبًا، والحقيقة أننى كنت أحس بالفارق ينمو، والهوة تزداد عمقًا كلما إنتقلت إلى مرحلة جديدة، فقد كان فقراء الفلاحين يتركون بناتهم يذهبن للمدرسة الإبتدائية ليتعلمن القراءة والكتابة وشيئًا من الحساب يفيدهن في حياتهن، لكن زميلاتى في المرحلتين الإعدادية والثانوية كن أيسر حالاً وأحسن مظهرًا، مما ضاعف إحساسى بوجود حاجز لايمكن اختراقه يفصلنى عنهن.

الغريب أن الزميلة الوحيدة التى قدَّرت تفوقى، وحسبته ميزة لاتُنكر هي ابنة الباشا الذى كان أكثر رجال القرية ثراءً ونفوذًا دون منازع، كذلك فإن "فوزية" دأبت على أن ترسل إلىَّ في مطلع كل عام طقمًا جديدًا من الملابس المدرسية والمنزلية، فنقلت بذلك مظهرى إلى مستو لم يخطر لى على بال، والغريب أننى كنت أحس أنها تملك حاسة التقدير لشعور الآخرين بحيث لم أشعر معها بالفارق الاجتماعي

أو المادى، كما كنت أشعر به مع من هن دونها في الغنى والجاه، كانت تشعرنى - دون قصد - بأننى أملك ما أحسد عليه من الجمال والعقل الراجح، وتتنبأ لى بمستقبل باهر بتواضع وتلقائية أقنعانى بمواصلة الجهاد، فتجاهلت غمزات الزميلات اللاتى كنّ مصرات على ألا يرين فىَّ أكثر من تابعة لابنة الباشا، لم أشعر بحساسية تجاهها رغم أن الجميع كانوا يعلمون أن أبي مجرد مستخدم في بعض أملاك والدها الباشا، وأننى عندما أدعى للمذاكرة معها في منزلها فإنما يكون هذا نوعًا من الإحسان، وفرصةً لتناول طعام فاخر، والاستمتاع بالجلوس في مكان مُهيأ للدرس والمذاكرة، لايتاح لمن كان مثلى إلا في الأحلام، ويكفى أن أستذكر دروسي بعيدًا عن ضجة الإخوة الصغار، والواجبات المنزلية التى لاتنتهى في ذلك المنزل الفقير الضيق الذى أقطنه مع أسرتى.

** ** ** **

عندما ذهبت إلى العاصمة الكبرى لألتحق بالجامعة، فإننى أدركت أن الباشا قد دفع لأبى مصاريف الدراسة ورسوم المدينة الجامعية حيث أقمت في غرفة مستقلة لأول مرة في حياتى، قدمتنى فوزية لزميلاتنا على أننى زميلتها في الدراسة الثانوية، وأننا نشأنا في نفس الإقليم، كان من الواضح أنها لن تجد أى عناء أو صعوبة في شق طريقها ومواصلة التعليم حتى الحصول على أعلى الشهادات، أما أنا فكان عليَّ ألا أنسى أننى سأظل أنوء بفقر أسرتى، ما لم أجاهد وأثابر حتى أستطيع إتمام تعليمى الجامعى، وأحافظ على المجانية عامًا بعد عام، حتى أنال شهادة ترفع من قدرى، وتعيننى على المساهمة في إعالة أسرتى، ورفع مستوى معيشتها، كانت خطابات أبي لاتفتأ تذكرني أنه قد أجهده السعى لسد احتياجات إخوتى من ضروريات الحياة، فضلاً عمّا يرسله إليّ من نفقات من حين لآخر، وكم سائلت نفسي طوال هذه الفترة ما إذا كنت قد نلت حقًا إعجاب فوزية إلى الدرجة التى تنسيها الفارق الإجتماعى بيننا، وترفع من شأن

علاقتنا من زمالة دراسة إلى صداقة حقيقية، لكننى على أى الأحوال سعدت بأن وجدت نفسى وسط مجتمع جديد لايحاسبنى على تاريخ أسرتى، ولا على مستواها الاجتماعى، وفوجئت بأننى أستطعت في سهولة ويسر أن أكتسب مودة زميلاتى، عدا ما لاحظته من أن ملامحى الغربية اجتذبت أنظار بعض الزملاء الذين عبّروا عن إعجابهم بطرق شتى تراوحت بين النظرات الحالمة والإبتسامت الخجولة التى لم تثر في نفسى سوى الدهشة، ولم تلق إلا التجاهل، إذ ذكّرتنى بما لقيته أمى من جراء انجرافها وراء عواطفها، وما لقيناه - إخوتى وأنا - من الفقر والمعاناة في حياتنا من جراء عدم درايتها، وزواجها من رجل شبه معدم.

توفرت على الأستذكار مستفيدة من الهدوء والراحة، وبما نعمت به من "رخاء" لم تحسه زميلاتى في المدينة الجامعية ممن تعودن التدليل في منازلهن، وكرَّست وقتى لاستيعاب الدروس، وأنا لا أصدق أننى وجدت نفسى أخيرًا أعيش وسط زميلاتى اللاتى يقدرننى ويحترمن تفوقى، وتحت إشراف أساتذة يفتحون لى أبوابهم في غير وقت المحاضرات دون تأفف أو ضجر، وتجاهلت ما همست به بعض الزميلات عن إعجاب هذا الزميل أو تدليل ذلك الأستاذ.

علمتنى حياتى في القرية أن أنسى كل مالا طائل من ورائه، أو أن أتناساه وكأننى لا أحسه تمامًا، وفي إجازة الصيف كنت لاأتحدث مع إخوتى أو والدى عن الجامعة إلا فيما ندر، كان أبى مكتفيا بنجاحى وبتقديراتى العالية سعيدًا بهما، وظل قصارى ما يطمح إليه هو أن يرانى مدرسةً في إحدى المدارس القريبة من القرية، ثم زوجةً وأمًا حتى يشعر إنه أدى رسالته نحوى، لم أحاول من ناحيتى أن أجادلة أو أحاوره حتى نجحت في السنة النهائية، وحصلت على الشهادة الجامعية، مع تعيينى معيدة في كلية الآداب فى العاصمة، وترشيحى لبعثة إلى المملكة المتحدة.

** ** ** **

لم أفاجأ بمعارضة والدى وانسياق والدتي وراء رأيه، علمت أنهما مشفقان من الأعباء المالية، ومتلهفان على راتب المدرسة وحصيلة الدروس الخصوصية، واجهتهما بإرادة فولاذية ولم أتنازل قط عن هدفى حتى رضخا، وعلمت من أبى أن ابنة الباشا التى أصطحبتنى معها إلى الجامعة سوف ترافقنى فى رحلتى، رغم أنها لم تُعَين في الجامعة، وأنّ الباشا سيدفع تكاليف سفرها ودراستها، كما سبق ودفع تكاليف سفر أخيها لفرنسا لدراسة القانون.

عرفت فهمي عبد الرحمن بحكم عمل والدى، وترددى على منزل الباشا في أول الأمر معرفة سطحية، أثناء وجوده في القرية، قبل سفره إلى الخارج لإكمال تعليمه الجامعى، سمعت عن سهراته في عاصمة الإقليم، كما نما إلى سمع أبى جانب من أخبار علاقاته النسائية التى أزعجت والده، وعلمت من فوزية شيئًا عن خلافاته المزمنة معها قبل أن يترك القطر إلى فرنسا، كما أخبرتنى أنه - رغم عدم تغيير سلوكه فى مدينة النور - لم يتعثر في دراسته، وحصل على إجازة في القانون، وان والده وافق على أن يبقى هناك لبعض الوقت لعمل بعض الدراسات العليا، وكانت أول فرصة حقيقية لى لأن أعرفه عن قرب وأتحدث معه باستفاضة هى تلك التى سنحت لى عندما رافقنا - أخته وأنا - في أول رحلاتنا إلى لندن، والواقع أنه أطمئن على كل ما يتعلق بسكننا ومعيشتنا قبل أن يغادرنا عائدًا إلى باريس، واتسمت تصرفاته برجولة وشهامة لايمكن انكارهما خاصة وإنهما صدرتا منه هو بعد كل ما سمعته عنه، وخالجنى شعور غريب ناحيته لم أعرف كنهه أبدًا، وظللت حريصة على ألا تتعدى علاقتنا إطارها الذى رسمته في حزم وإصرار، وإن خيل إلى أحيانًا أنه يرغب في أن يوثق معرفته بى بشكل ما.

** ** ** **

بالنسبة إلى خطبتى التى أجبرنى عليها والديَّ إلى أحد أقارب أبي، فالحقيقة أننى اعتبرتها مجرد إرضاء لهما لامفر منه حتى لايعارضون في سفرى، ولكننى في قرارة نفسى لم آخذها قط مأخذ الجد، ولا نويت أن أسمح لأى إنسان مهما كانت صلته بى ومكانته في نفسى أن يملى على ما لا أرضاه او أقتنع به، أما صديقتى فوزية فقد لاحظت لهفتها وحرصها على مراسلة خطيبها، وكانت - على عكسي - متشوقة إلى العودة للقطر في أسرع وقت، ولست أدرى على التحقيق ما أدى إلى فسخ هذه الخطبة في النهاية، لكننى حدست أن خطيبها هو الذى تملص من الارتباط بصورة بدت وكانها نتيجة لتصلب فوزية، وإصرارها على استكمال دراستها بالخارج مفضلة شهادتها على ارتباطها به، كان الرجل مهذبًا وعاقلاً حتى فى نظر والد فوزية وأخيها، لكن تصرفه ترك فى نفس صديقتى جُرحًا لم يندمل، ظلت تعانى من آثاره طوال حياتها وإن حرصت على إخفائه، وعدم الاعتراف بما سببه لها من صدمة وألم، ولعلها حمَّلت أسرتها بعض المسئولية عما حدث، لم يخطر ببالى وأنا أواسيها في غربتها أننى سوف أواجه نفس الموقف بعد فترة قصيرة، وسوف أذوق نفس الكأس الذى واسيتها حين وجدته بين يديها.

كانت فوزية في غربتها ووحدتها قد بدت ضعيفة مستسلمة لفترة قصيرة، وقد أخذت الحسرة بمجامع نفسها، وشغلتها عن كل ما حولها ومن حولها، لكنها سرعان ما تمالكت نفسها بسرعة فائقة، وعادت للاستغراق في العمل والانكباب على دروسها التى وجدت فيها سلواها وعزاءها، ساعدتها طبيعتها القوية على أن تسدل قناعًا من الجمود والتعالى على وجهها، ولم تتخل عن هذا القناع بعد ذلك إلا في حالات نادرة تُعد على أصابع اليد الواحدة، شهدت بعضها بعد ذلك بسنوات طويلة عندما إصطدمت بأخيها وهى في مرضها وضعفها، وفيما عدا هذا فإنها كانت تبدو شديدة الصلابة والقوة، وهى

الصورة التى عرفها بها زملاؤها في العمل، والتى ما يزال الناس في قريتنا يذكرونها بها حتى اليوم.

لم تعترف فوزية بما ظلت تعانيه في صمت إلا لأحد زملاء أخيها الأكبر سنا، وكان من أبناء القطر الذين سبقوا فهمي إلى الدراسة في السوربون، كان هذا الزميل عاقلاً رصينًا فاعتبرناه كأخ أكبر لنا جميعًا، وشجع هذا صديقتي على البوح بما أحسته آنذاك له، وتمنيت أن يكون هذا الشخص من نصيب صديقتى، إذ لم يسبق لى أن رأيتها تنسى جمودها وتخلع قناعها إلا معه، لكنه ما لبث أن تخلى عن عمله في فرنسا، وعاد ليعمل قاضيًا في وطنه، وعلمنا عند عودتنا أنه تزوج وأنجب ولدًا واحدًا، ولعل مثل هذا الخاطر دار بخلدها آنذاك وإن كتمته عنى، ووأدته مع ما وأدت من مشاعر مرهفة أحست أنها ستعتبر ضعفًا وهوانًا أمامي وأمام زميلاتنا، خاصةً وأنها كانت تظن أن هذا الشخص بالذات يميل إلىَّ، وقد أعتقدت يومها أن فوزية صارت تظن أن كل من حولنا أضحى معجبًا بى أسيرًا لجمالي، ربما بتأثير صدمتها في خطيبها، ورغم أننى من جانبي نفيت هذا الأمر تمامًا، لكنها ظلت تعتقد أنه كاد أن يبوح لى بمشاعره لولا ما حدث بعد ذلك بينى وبين شقيقها.

نعم كانت هذه هى طبيعتها هى التى ساعدتها على تخطى تلك الفترة وتجاوزها أكثر من أى مواساة أو مُساندة، ولاحظت فوزية تضائل الفوارق في الغربة بينى وبين أخيها، وربما كان هذا هو سر إحساسى بتباعدها عني فجأة، رغم حرصي على علاقتي بها واعترافى بفضلها، كان فهمي الذى تخرج من السوربون وبدأ في الإعداد للماجستير يزورنا كثيرًا، وقد علمت من بعض معارف فوزية إنه إمتدحنى وأطرى أخلاقى فى أكثر من مناسبة، كنت مازلت متحفظة تماما في تعاملى معه فأدرك أن الطريق الوحيد إلى قلبى هو الطريق السوى، تخليت عن حذرى وتناسيت ما قد ينشأ عن ارتباطن

من آثار، وما سيفعله الباشا عندما يعلم بما حدث، فأعلنَّا خِطبتنا وسط دهشة فوزية وزملائنا الذين لم يفهموا سببًا للعجلة، وقضينا ردحًا جميلاً من الزمن بين لندن وباريس، ورغم أن علاقتنا كانت بريئةً تمامًا، إلا أننى مازلت أحسب تلك الأيام كأجمل ما صادفنى في حياتى حتى الآن، فقد غمرنى فهمي برعايته وهداياه، ولم أدر ما يخبئه لى القدر آنذاك، ولم يخطر بالى قط أن ما أظهره فهمي نحوى يمكن أن يعبر عن شئ خلاف العاطفة الصادقة الممتزجه بالإعزاز، ولا أن نهاية هذا الارتباط الهش ستكون أليمةً جارحةً.

** ** ** **

لم يدم الزمن الجميل طويلاً، فعلمت أن الباشا طرد والدى من عمله ممّا اضطره إلى الانتقال إلى عاصمة الإقليم بحثًا عن عمل يعول منه أسرته، كما انتهت البعثة بعد ذلك بشهور، وعدت لأواجه أسرتي الساخطة، وأسرة الباشا الرافضة لهذه الزيجة، عادت فوزية بعدي بفترة قصيرة وتسلمت عملها في مكان مرموق بمرتب يبلغ أضعاف مرتبى من الجامعة، وانتظرت عودة فهمي على أحرَّ من الجمر، مرت شهور وفوزية لا تتصل بى إلا نادرًا، وكلما قابلتها تتعلل بانشغالها، أو تتهرب كلما حاولت زيارتها أو مقابلتها، إلى أن حضرت ذات يوم دون موعد سابق إلى مكتبى في كلية الآداب، علمت من طريقتها أنها تحمل أخبارًا عن أخيها، ذهبت معها إلى مقصف الكلية وانتحينا ركنًا هادئًا، أخبرتنى أن أخاها قد اضطر إلى أن يرتبط بخطبة إبنة أحد كبار رجال الحزب الحاكم، وهو صديق حميم لعبد الرحمن باشا، وأنه أرسلها لتعتذر وتشرح ظروف هذه الزيجة التي لم يكن لديه مفر من قبولها نظرًا لتدهور صحة الأب الذى يصر على إتمامها فى أقرب وقت، وأنها واثقة أننى أحب أخيها حبًا صادقًا، وسأقدر أن مصلحته تقتضى أن يتم فسخ الخطبة فى هدوء ودون علم أحد منعًا للحرج والتقولات، وعرضت عليَّ أن أحتفظ بكل هدايا فهمي مع أى

تعويض مادى عادل أراه مرضيًا، ولكننى رفضت أن أقبل ما يمكن أن يُعتبر ترضية أو تسوية مالية، وأكّدت لها أننى سأرد كل هداياه دون تردد.

لعلى أدركت فى لحظتها شعور صديقتى الحقيقى نحوى، وكيف تجاهلت وقوفى إلى جانبها فى ساعات الشدة، ورأيت كذلك وجهها الحقيقى لأول مرة، وهى تبرز أنيابها وتتفنن إلى إظهار تسلطها وقوتها، ثم علمت فيما بعد أن فوزية كانت حريصة على إتمام زواج أخيها لأن شقيق العروس تقدم لطلب يدها فى نفس الوقت، ومرَّت علىَّ أيام لا أستطيع وصفها، حتى شعرت أننى أصبحت غير قادرة على مواصلة حياتى فعلاً، ولولا تلك الإعارة التى عرضها عليَّ أحد أساتذتى ـ تقديرًا لحالتي ـ لإحدى الأقطار الشقيقة لما استطعت تجاوز هذه المحنة، وعلمت قبيل سفرى أن فهمي حضر للكلية بعد مقابلتى لأخته ليرانى، لكننى لم أحاول أن أتصل أو ألتقى به، وسافرت بعد أن اتصلت بفوزية وطلبت منها أن ترجوه ألا يحاول الاتصال بي بأي شكل من الأشكال.

قضيت عامين فى الغربة لم أحاول الرجوع خلالهما ولو لقضاء أجازة واحدة فى بلدى، وكنت أحس بالمرارة كلما تذكرت شيئًا ممّا ذقته فيها من إحباط وفشل، إذ أصبحت كل الأشياء تذكّرنى بخيانة فهمي وتخليه عنى، وموقف أخته مني بلا عذر أو مبرر، وأنا التي واسيتها ولم أتخل عنها فى موقف مشابه.

** ** ** **

علمت عند انتهاء فترة الإعارة بإنشاء كلية مماثلة فى عاصمة الإقليم، فطلبت نقلى هناك، وكانت فرصتى لأجد العزاء مع أسرتى، ولأبدأ حياتى محاولة أن أتناسى جراح الماضى، تزوجت من أحد رجال الأعمال وأنجبت منه ولدين، وسارت حياتى سيرًا هادئًا، غير أننى لم

أذكر لزوجي شيئًا عن خطبتي لفهمي حرصًا على أن أنسى ذكريات الماضى، وتجنبًا لإثارة المتاعب مع الباشا وأسرته، ولم أشعر بالشماتة عندما علمت أنّ شقيق زوجة فهمي فسخ خطبته لفوزية، وتجنبت الحديث عن رفيقة الصبا وأخيها مع أسرتى ومعارفى حتى لا أنكأ جراحى بيدى.

مر زوجى بظروف سيئة فى عمله أثرت على طباعه، وخلفت فجوة بيننا وصلت إلى الطلاق، وعرفت أن فوزية بعدها تبحث عنى وتسعى لمقابلتى، فاتصلت بها ودعوتها إلى شقتى الصغيرة التى عشت فيها مع ولديَّ، قابلتنى بالاحضان والبكاء، فلم أتمالك نفسى وشعرت بكل ما فى أعماقى من شكوك ومرارة من ناحيتها يذوب فجأة، جلسنا نشكو حظنا فى الحياة ونضحك لتصاريف القدر، كنت قد فسخت خطبتى مرة وطلقت مرة، أما فوزية فقد فسخت خطبتها مرتين وتركت عملها مرتين، واستقر بها المقام أخيرًا فى إحدى المدارس الثانوية فى مدينة قريبة، ذكرت لها أن أحد أقرباء أبى يعمل فى نفس المدرسة، وكلمته لأوصيه عليها ليرعاها، كما وعدتنى بأن تطلب من محامى الأسرة أن يتابع مشاكلى مع زوجى السابق حتى أحصل على حقوق الولدين وحقوقي كاملة، وتكررت زياراتنا خاصة بعد وفاة طليقي، وبعد أن تزوجت فوزية من قريبى الذى يعمل معها بعد أن عرفتها عليه، وبدأت مرحلة من علاقتنا لعل الجميع يعرفون تفاصيلها.

لست أصدق عندما أراجع ما حدث فى مخيلتى أن فهمي عبد الرحمن خطيبى السابق ظل طوال هذه السنين لا يحاول مقابلتى أو رؤيتى، ليس فقط بسبب ما لمسته من حبه وتعلقه وإخلاصة طيلة فترة ارتباطنا، بل لأننى لم أتوقع أن يقابل موقفى منه ومن أسرته بهذا التجاهل والنكران حين قبلت الانسحاب فى صمت، ولم أتسبب فى أية مشكلة تمسه أو تشين عائلته، وكان هذا سهلاً وميسورًا، وطالما تساءلت عمّا حدث له، وهل ظن أن من حقه أن يفنى الجميع فى ذاته،

دونما انتظار لشكر أو عرفان، لم يقنعنى ما ذكرته فوزية عن إنقلاب شخصية أخيها وتحوله إلى إنسان متحجر قاسى القلب، لا يعبأ بمشاعر أقرب الناس إليه إذا ما تعارضت مع رغباته ومصالحه، إذ أن على من يهتم بمصالحة إهتماما حقيقيا ألا ينسى حقوق الآخرين، خاصة إذا كان تناسى هذه الحقوق قد يضر به دون أن يفوز بشىء فى المقابل، هل كانت معرفة فهمي بى، وإدراكه لعمق مشاعرى تجاهه فى الماضى قد جعلاه واثقًا من أننى لن أقدم على ما يسىء إليه مهما كانت الظروف..؟!.. لكننى لم أشمت به قط حتى بعد كل ما حدث لاحقًا..!.. ولا أظن أنني سأستبق الأحداث دون داع، على أيه حال فوجئت بفوزية تخبرنى أن أخاها دفع أتعاب المحامى عن الإجراءات التى إتخذها لضمان حقى، وحقوق ولدىَّ فى ثروة أبيهم، وأنه دفع من نصيبنا خلو شقة واسعة فى مكان راق فى عاصمة الإقليم قريبًا من محل عملى، وذلك لأقيم بها أنا والولدان. وعندما رفضت قبول شىء منه قاطعتنى مذكرة إياى أننى لم أحصل من زوجى على مؤخر صداق أو نفقة كافية، وأننى أشكك من ناحية أخرى فى ذكاء أخيها، إذا تناسيت، أنه- كرجل قانون- يعرف اننى كنت قادرة على الحاق الأذى بأسرته، ومستقبله السياسى لو أنسقت وراء مشاعرى المجروحة عندما هجرنى بلا ذنب أو جريرة، وأننى لابد أننى أعرف أنه مدرك تماما لما كان يمكننى أن أفعله لو سعيت للإنتقام منه بسبب تخليه عنى بتلك الصورة الجارحة، ورجتنى أن أنسى موقفها فى تلك الأيام، وأقسمت أن هناك من الأمور التى لا أعرفها ما يبرر تصرفها وتباعدها آنذاك.

رغم أن فوزية بدت لى وكأنها فتحت صفحة جديدة فى علاقتنا، لا تثق فيها إلا بى، ولا تكتم علىَّ من أسرارها أمرًا من الأمور، ورغم أننى ظللت كتابا مفتوحا بالنسبة لها لا أخفى عنها أدق خصوصياتى، فقد ظلت تحتفظ بما تريد من أمورها لنفسها، وتخبرنى بما تراه لا

يخل بطبعها فى التحفظ و الكتمان، وظلت علاقتى بها خارج نطاق إرادتى فلم أشعر يوما أننى أستطيع رسم حدودها أو التحكم فى مداها.

إعتبرت فوزية أن من حقها أن تتدخل فى حياتى، تفرض على مساعدتها وتضع حدود العلاقة بيننا، فتشركنى فيما تريد، وتستأثر لنفسها بما ترغب فيه، وإعتبرت منزلى الجديد مسكنًا لها، خاصة بعد أن سافر ولداى وأصبحت هى وحيدة بعد وفاة زوجها الأول، وبحكم عملها فى عاصمة الإقليم، كثر ترددها على شقتى، وأصبح من عادتها قضاء فترة ما بعد الظهر بها سواء أكنت موجودة أو غائبة لبعض شأنى، وفى المقابل فإننى لم أتعود الذهاب إلى منزلها فى القرية بعد أن إنتقلت للعيش فيه إلا بعد إستئذانها، أو بناءً على دعوة منها، خاصةً بعد أن تزوجت للمرة الثانية من شريف بك.

الواقع أننى احسست أن فوزية رغم تسلطها وميلها للسيطرة على من حولها، ظلت فى قرارة نفسها تشعر بنوع من الهزيمة والإحباط، خاصة بعد أن فُسخت خطوبتها وهى وحيدة غريبة بصورة لم تفارق خيالها، وتكررت المأساة بشكل أدمى فؤادها حين تركها شقيق زوجة أخيها حتى دون سبب ظاهر هذه المرة، ولعل رغبتها فى أن تشعر أنها مرغوبة جعلها تتعجل زيجتها الأولى التى لم تكن سعيدة أثناءها ولا مقتنعة بها، مما أشقاها وأشقى زوجها، وضاعف عدم الإنجاب من شعورها بعدم الرضا، وقد سمعت ما قيل من أن حادث السيارة وقع بعد مشادة بين الزوجين، خرج زوجها من المنزل على إثرها، فقاد سيارته وهو منفعل مما تسبب فى وقوع الحادث على هذه الصورة، وكانت فوزية قد دابت فى أيام زوجها الأخيرة على أن تعيره بعجزه المادى بسبب تمسكه بمبادى هدامة وإغراقه فى الخيال، ولم تبال بوقع هذه الكلمات على رجل إعتاد ان يلقى الحفاوة والتقدير من زملائه.

أما شريف بك فقد قيل أنه - رغم ميله لمساعدتها فى مشروعاتها الخيرية، وتوسيع هذه المشروعات بأمواله وعلاقاته - طالما شكا من برودها وحدتها وولعها بالتقليل من شأنه، لكنَّ الرجل كان يملك الخلاص عندما يريده، فراح يمضى الأيام فى عزبته القريبة من القرية مع أولاده من زوجته الأولى تاركاً فوزية وحدها معظم الوقت، ولذلك فإنه لم يسمح للعلاقات بينهما أن تصل إلى درجة تضطره إلى الوقوف فى وجهها، مما يفضح ما بينهما من خلاف، وظل كل شىء خافيا حتى النهاية.

بعد وفاة شريف بك بعدة شهور، ظهر احد أقربائى من ناحية الأم، كان يعرف فوزية عن طريق البنك الذى تعودت أن تودع فيه حساباتها الخاصة بالجمعيات الخيرية، ولم تكن علاقتى بأقارب والدتى طيبة على وجه العموم، لذلك فإننى لم أشجعه على التذرع بقرابته لي ليوطد صلته بفوزية، أو ليحصل على عمل إضافى فى الجمعيات التى ترعاها ،ولاحظت أن صديقتى على غير عادتها كانت تتبسط معه، وتنفرج أساريرها كلما تحدث إليها، مهما كان موضوع الحديث، وسمحت له بالحضور أحيانا إلى القرية فى الأوقات التى أكون موجودة فيها هناك متذرعة بإنهاء بعض الحسابات العاجلة، أو إيداع بعض التبرعات من أهل الخير.

فى الفترة التى سبقت وفاتها، لاحظت انها تباعدت وقلت زياراتها مكتفية بالاتصال تليفونيا، فلم تزرنى إلا مرة أو مرتين عندما كنت غائبة خارج المدينه لحضور مؤتمر ما أو مناقشة لرسالة فى مدينة أخرى، وفى أحد الأيام شعرت ببعض التوعك فإعتذرت عن إكمال مهمتى، ورجعت إلى المنزل فى سيارة إحدى زميلاتى، صعدت إلى شقتى وفى نيتى تناول كوب من الليمون وقرص من الأسبرين، وإذا بى أشم رائحة دخان نفاذ ذكرنى بسجائر قريبى، ووجدت أن الرائحة تبلغ أقصاها فى غرفة النوم كما لاحظت أن أغطية السرير قد تم

تغييرها، حسبت أننى سأجد فوزية فى الشقة ولكننى لم أعثر لها على أثر، وكنت متعبة فتمددت حتى غلبنى النوم متوقعة أن تعود صديقتى بين لحظة وأخرى كعادتها، ولكن هذا لم يحدث، إستيقظت فى حال طيبة فحاولت ترتيب غرفة النوم، وإذا بى أفاجا ببعض أعقاب السجائر فى كوب تحت السرير، ولدهشتى وجدت ولاعة وسلسلة مفاتيح، وقفز إلى ذهنى خاطر" مذهل لم أشا أن أصدقه وهو أن هذه الأشياء تخص قريبى، لم يكن سهلا أن أتصور علاقة من أى نوع بين شاب فى مطلع الأربعينيات وأمراة أشرقت على الخمسين أو تخطتها لها صفات صديقتى التى أعرفها، إذ كيف يمكن أن تستسلم فوزية لشاب بهذه النوعية المنفرة، وكيف لم تتنبه لما قد يدفع مثل هذا الرجل نحوها؟!

تركت البحث وتوضيب الغرفة وجلست متأملة فى حياتى وحياة صديقتى.

خيل لى قبلها أنها تعامله بتحفظ ولباقة برغم أنه يتصرف برعونة وطيش ينمان عن طمع ودناءه وأصل متواضع، وأنها تصده كلما حاول التقرب منها بلطف وحنكة، وأن صبرها على طباعه إنما يظهر مدى ثقتها بنفسها وعمق تجاربها فى الحياة، مما يجعلها من مأمن من الوقوع فى براثن مثل هذا الوحش الناعم الذى لا تخفى أغراضه عليها مهما كانت قدرته على التكلف والتصنع.

عندما حضرت فوزية لزيارتى فى اليوم التالى أخبرتها - كاذبة - أننى وصلت لتوى، وتأكدت شكوكى عندما لم تخبرنى بحضورها للمنزل فى اليوم السابق، ووجدتها تدخل غرفة النوم حيث تعمدت ترك كل شىء على حاله وكأننى لم أنتبه لوجوده بالغرفة، وفوجئت بعد انصرافها المتعجل باختفاء الولاعة والمفاتيح وأعقاب السجائر، فجلست لا أدرى ماذا أفعل وقد تأكدت ظنونى وتملكنى حزن عميق، إذ ظلت

لفوزية وهى صديقة العمر مكانتها وإحترامها فى نفسى رغم كل شىء.

** ** ** **

بعد هذه المقابلة بأيام كنت أستعد لحضور ندوة علمية فى الجامعة، وقبيل خروجى من المنزل فوجئت بإبن فهمي الأكبر يدق جرس بابى، نظرت وراءه متوقعة أن تكون خطيبته معه لكننى لدهشتى وجدته يستأذن لوالده فى الدخول، ولم أملك إلا أن أرحب بهما، وطلبت من البواب ان يحضر لهما شرابا مثلجا، كانت تلك أول مرة أقابله فيها وجهًا لوجه بعد ما يقرب من ربع قرن..!.

رغم الهدوء الظاهرى فإنى لمست مدى توتر خطيبى السابق وإنفعاله، وأحسست أنه يعلم أننى وحدى، وتوجست من هذه الزيارة المفاجئة التى لم أتوقعها قط، تحدث فهمي أولا عن معرفته بصداقتى لأخته وعلاقتى الوثيقة بها فى الأعوام الأخيرة، وسألنى عما أعرفه عن مدى ارتباطها بذلك الشاب الذى علم بقرابته لى، شرحت له فى إيجاز أن فوزية قد إنقطعت عن زيارتى منذ فترة، وركزت على أن قرابتى لهذا الشاب لم يكن لها دخل فى معرفته بإخته التى تعاملت معه من خلال وظيفته فى البنك قبل أن أراه لأول مرة، وأن صلتى مقطوعة منذ زمن طويل بأخوالى كما أظنه يعرف، وأبدى فهمي شكره وإعتذر عن ذلك الإزعاج غير المتوقع، وإنسحب فى أدب مع إبنه الذى لمست من نظراته مدى ضيق صدره بالمقابلة، وعدم رضاه عن تلطف أبيه وحرصة على معاملتى كصديقة مقربة من الأسرة، والحقيقة أننى لم أعرف سببًا لشعوره تجاهى، إذ لم أجد له مبررا منذ معرفتى به وبخطيبته عن طريق عمته فوزية، خاصةً وأننى كنت متعاطفة معهما مؤيدة لموقف فوزية من ارتباطهما، وتساءلت عما قد يكون عليه شعوره لو علم بالعلاقة القديمة بينى وبين والده، لكننى كنت أحس ان فهمي اخفاها عن كل من حوله وان الشاب لا يدرى عنها شيئا.

أما المقابلة التى لا أنساها فقد كانت عقب حضور المرحومة إلى شقتى بعد أن أحست بتدهور صحتها، وكما رأيتها فى أوجّ ضعفها ونحن فى لندن، عدت أشهد أنهيارها الذى كان بتأثير حالتها النفسية بقدر ما كان إنعكاسا لتفاقم ارتفاع ضغط الدم ومرض السكرى، بدأت كعادتها بأن عاتبتنى على إنقطاعى عن زيارتها فى القرية، وراحت تحكى لى ما قاله الطبيب، كان واضحا أنها أحضرت حقيبة ضخمة تدل على نيتها أن تقيم لفترة ليست بالقصيرة، وبقدر دهشتى من حضورها بعد طول إنقطاع، وسعادتى الحذرة بوجودها معى مما كان - برغم كل شىء- يسلينى فى وحدتى بعد سفر الولدين، فإننى حمدت الله بعد ذلك لأنه لم يكتب لها أن تنتهى حياتها فى منزلى، ولعل هذا قد جنبنى كثيرًا من الشكوك والمشاكل التى أنا فى غنى عنها، خاصة اذا ما أثيرت حكايات الماضى ونُكئت جراحه.

فوجئنا بجرس الباب يدق، وعندما فتحت الباب، وجدت فهمي وحده هذه المرة، كان حزينًا متجهمًا، وسألنى عن أخته، وما أن علم بوجودها حتى دخل مندفعًا بصورة جعلتنى أستمهله حتى أخبرها بقدومه، لكنها لم تنتظرنى وكأنها توقعته، وإذا بها تنفجر فى وجهه تتهمه بالقسوة والأنانية والطمع فى ثروتها، وأشارت إلى محاولاته اجبارها على بيع أرضها، وكراهيته لكل ما قدمته للناس من خدمات، ومسئوليته عن مرضها وتدهور حالتها النفسية.

من الغريب أنه جلس هادئا يستمع إليها، وفى الوقت الذى رفضت فوزية فيه محاولاتى لتهدئة الموقف، أصرَّ فهمي علىٍ بقائى عندما حاولت الانسحاب، وقال أنه يريدنى أن أكون شاهدةً أسمع كل ما يقال، وسألها بحدة عن سبب تركها للقرية رغم أنه أخبرها انه سيحضر لأخذها للعاصمة الكبرى حيث يمكن توفير الرعاية الطبية بصورة أفضل؟.. فلم تحر جوابا وأنهارت على أقرب مقعد وملامحها

تنبىء عن يأس وإعياء شديدين، وإنبعثت تبكى بعد أفرغت سيل اللوم والاتهام لأخيها.

خشيت أن تتطور الأمور فأجد صديقتى وقد قضى عليها، توسلت إليهما أن يهدئا من روعهما فسادت فترة من السكون، بدأ فهمي بعدها فى حديث هادىء، أذكر أنه بدأه بأن قال أن هناك الكثير الذى لا أعرفه ولا يعرفه الناس عن أخته، وأنه يظن أنه قد آن الآوان لأن يبوح بما قد ضاق صدره بكتمانه، ذكّرها بإنها كانت وراء إصرار أبيها على فصم العلاقة بينى وبينه، ولم تتركه حتى أقسم أمامها ألا يحاول رؤيتى تاركا لها أن تسوى الأمر معى، واعترف بأنه حنث فى يمينه وحاول مقابلتى بعد ذلك دون جدوى، وركزّ على خطبتها لشقيق زوجته الذى لمس طباعها الحادة وتسلطها، مما جعله يتركها، فأورثها العداء والكراهية لزوجته وله، وعرض لزواجها الأول والثانى مؤكدًا علمه بما عاناه كل من الزوجين، ثم فأجأنى بحديثه عن زواجها السرى بذلك الشاب الذى وصفه بالتفاهة والخسة، قال أنه علم بنيتها وحذّرها فلم ترتدع، وعندما واجهها بعد إتمام الزواج أنكرت، لولا أنه أظهر لها صورة عقد الزواج التى إستخرجها محاميه، فما كان منها ألا أن عاندت وهددت بإعلان هذا الزواج على الملأ إذا لم يتوقف عن ملاحقتها.

بدت فوزية على وشك الإنهيار، وظهرت على وجهها علامات الإنكسار التى لم أرها منذ زمن طويل، فرجوت أخاها أن يكف عن إيلامها، وأن يتركها حتى تستريح، وبعد إنصرافه إطمأننت أنها تناولت دواءها وأخلدت إلى النوم.

أحسست فى نفسى شيئًا من الإمتعاض والرفض لأسلوب كلا الأخوين فى تصفيه حساباتهما دون مراعاة لمشاعر الأخرين، كما أننى لمست - لأول مرة - مدى التشابه بين طباع فهمي و شقيقته، فكلاهما غارق فى ذاته، غير مكترث بمن حوله، واجتاحتنى المرارة

حين تأملت طريقتهما فى معالجة أمرى، وأعتباره مجرد وسيلة لإجتذابى لهذا أو لتلك، ويقينهما أن من ضيع علىَّ فرصة الارتباط بفهمى فى الماضى سيخسر تعاطفى تلقائيا.

تجنبت فوزية بعد هذه المقابلة العاصفة الخوض فى المواضيع التى طرقها أخوها، وبدت محرجةً حريصةً على أن تعود إلى القرية بأسرع ما يمكن، ولم أضغط عليها خاصةً وأننى كنت على وشك أن أسافر إلى العاصمة الكبرى لمقابلة إبنى الأكبر الذى عاد فى إجازة من عمله.

** ** ** **

حضر فهمي لزيارة أخته عندما علم أن صحتها قد ساءت بعض الشىء،.. قابل الطبيب المعالج، وأستأذننى فى أن يحضر ممرضة وخادمة لرعاية فوزية فلم أمانع، وفى إحدى زياراته كانت الممرضة قد أتمت عملها وتهيأت لترك الشقة فطلب من الخادم عمل فنجان من القهوة، وجلس فى الشرفة منتظرًا، فجلست معه من باب المجاملة، واذا به يفتح موضوعنا القديم، رجوته أن يتناسى الماضى، لكنه أصرَّ قائلاً أن هناك أشياء لابد أن يفضى إلى بها حتى يستريح ضميره، وأكد أنه يعلم أن الوقت قد تأخر لكن إيضاح هذه الأمور ضرورى لفهم الكثير مما غمض على فى الماضى ولم تسنح له الفرصة لايضاحه...

قال أن فوزية قابلته عند عودته من فرنسا، وأخبرته أننى قد سئمت الانتظار، وأن البقاء على هذا الحال انتظارًا لرضا والدهما الباشا عن زواجه منى قد أصبح لا يناسبنى، وبعدها بأيام نقلت أخته إليه رسالة شفوية منى أطلب فيها أن نعتبر ما بيننا منتهيًا، حتى يصبح كلاً منا حرًا فى أن يواصل حياته كما يتناسب مع ظروفه، بعدها ألمح الباشا إلى علاقة قديمة له بوالدتى طالبا منه أن يعتبر ما ذكره سرًا لا يخبر به أحدًا حرصًا على سمعته وسمعتى،.. كدت أنهار أنا

الأخرى لكننى تماسكت حتى أنهى فهمي حديثه، فأفهمته أن هذا الأمر كله مجرد اختلاق لا أساس له من الصحة، وقبل أن أكمل، أكد لى أنه عرف الحقيقة وتأكد منها، ولولا هذا لما فكر فى إتمام الزواج منى، وأقسم أنه حاول مقابلتى عدة مرات لكننى كنت أتهرب منه، وأنه حمّل أخته رسالة لى بهذا المعنى لكنها فيما يبدو لم توصلها، رجوته فى نوع من الحده ألا يذكر الماضى الذى أضحى نسيانه خيرا للجميع.. فأبدى أسفه لأنه نكأ جراحًا قديمة، لكنه دعانى أن أتفهم ظروفه وما أملى عليه هذا الموقف فى الماضى، وسكت برهة ثم عاد يقول أنه علم أنها كانت تقابل ذلك الشاب الذى تزوجته خلسه فى شقتى كلما علمت بغيابى، وتساءل كيف لم تقدّر ما سيظنه الناس بى إذا ما رأوا مثل هذا الفتى يتسلل إلى الشقة ثم ينسل منها ليلا؟!.. وأضاف أنه سوَّى الأمر مع زوجها فى سرية تامة، واتفق معه عن طريق محاميه على أن يطلقها مقابل مبلغ محترم من المال، لكنه فوجىء بها تصب جام غضبها عليه، حتى أنها رفضت أن تذهب معه لإستكمال علاجها فى أفضل المستشفيات فى العاصمة الكبرى، وأنه دهش من هذا الموقف لأن أخته كان يجب أن تدرك نية هذا الشاب، وأن تفهم أنه قدَّم فى النهاية دليلاً لا يقبل الشك على أنه لم يسع وراءها إلا طمعًا فى مالها، لكنها بدلا من ذلك أقنعت نفسها أنه قبل هذه الصفقة خوفًا من نفوذه وتجنبًا للدخول فى صدام معه!!.

واستطرد - منفعلاً - يشرح وجهة نظرة فى تصرفات أخته، بينما تساءلت هل يعقل أن يكون ما ذكره عن سعى أخته لفصم علاقتى به صحيحًا، أم أنه انتهز فرصة غيابها ليعيد صياغة الحوادث بهذه الصورة الأليمة، ورجوت الله أن تنتهى هذه الفترة على خير، غير أن دعائى - كما أظن - لم يستجب فى تلك اللحظة.

شعرت أن ما أخبرنى به فهمي قد زلزل كيانى كله، برغم عدم رضائى عن فتح هذا الموضوع أصلا، فذكرته بمرض أخته وطلبت منه

ألا يضغط عليها، وأن يمهلها حتى تستعيد عافيتها وتصبح قادرة على أن تعيد النظر فى كل هذه الأمور فوعدنى بذلك قبل أن ينصرف.

بعد ذلك مباشرة حضرت خطيبة أبنه الأكبر لزيارة فوزية، وكانت منزعجة للغاية، حكت لى أن خطيبها لم يتصل بها منذ سفره سوى مرة واحدة، ولم يرسل أية خطابات على الأطلاق، واسيتها وأنا موقنة أنها لو تأملت تجارب الأخرين، وأمعنت فيها النظر لأدركت أنها قد تكون نجت من تجربة أليمه قبل فوات الأوان.

تذكرت أن علىَّ أن أسافر فى اليوم التالى للعاصمة الكبرى، بدأت فى إعداد حقيبتى وطلبت من الخادمة إعداد بعض حاجياتى، لكنها عادت بعد قليل لتخبرنى أن فوزية إستيقظت، وتريدنى أن أذهب إليها، كانت تبدو أحسن قليلا من الإيام الماضية وأن ظل وجهها محتقنا بصورة واضحة، سألتنى عما فعلته فى الجمعيات التى حضرت إجتماعاتها نيابةً عنها، أخبرتها باتصال حارس منزلها وزوجته، وحضور أخيها أثناء نومها، طلبت منى ألا أتأخر قدر إمكانى فى العاصمة الكبرى، وأمسكت بيدى طالبة منى أن أذكر دائما أنها تعتبرنى صديقة عمرها، وأستحلفتنى ألا أصدق كلمة مما قاله أخوها أو ما سيقوله، كدت أبكى وشعرت بضآلة الدنيا وتفاهة ما نشغل به أنفسنا من أمورها، تمنيت ألا يكون فهمي صادقا فيما نسبه لأخته او لأمى، وأيقنت أننى لا أستطيع أن أصدقه فيما ذكرة عنهما، سألتنى صديقتى عن زميلنا القديم القاضى حامد البشير الذى إستقر فى عاصمة الإقليم بعد أن افتتح مكتبًا للمحاماه، وإبتسمت إبتسامة ذات مغرى وهى تؤكد لى أنه يعيش وحيدًا بعد أن ماتت زوجته، ولم يعد له من أسرة سوى إبنه الوحيد ضابط الشرطة، ونصحتنى أن أزوره فى مكتبه مؤكدة أنه سيسر لرؤيتى، إبتسمت بدورى وأنا أتذكر ما تعودت ان تقوله عن إعجابه بى أيام كنا فى الخارج، شعرت أننى فعلا لا أكرهها حتى لو كانت قد إرتكبت كل هذه الأخطاء التى أفاض

فهمي فى سردها ، وتناسيت كل ما قاله اخوها وكل ما حملته عليها فى الماضى، ودعوت لها مخلصة بالشفاء .

الغريب اننى قابلت الأستاذ حامد فعلاً أكثر من مرة فى فترة إنقطاع فوزية عن زيارتى، فقد فكرت فى توكيله لتحديد أنصبتى أنا وإبنى فى قطعة أرض كانت مناصفة بينى وبين زوجى السابق تمهيدا لبيعها ، حتى أحصل على ثمنها وأرسل لكل من ولدىَّ نصيبه ، وكان الرجل غاية فى الذوق والأدب، لكننى لم أجد المقام مناسبا لأخبر فوزية عن هذه الأحداث وإن عجبت لأنها تذكرت زميلنا القديم فجأة فى لحظة شفافية وصفاء.

غادرت المنزل فى الصباح المبكر متوجهة إلى الكلية، ركبت سيارة أجرة بعد انتهاء محاضرتى إلى محطة الحافلات حيث إستقللت أحداها غير عالمة أننى قد ودعت صديقتى إلى الأبد ، وبأن نهايتها ومن بعدها نهاية أخيها كاننا قد حانتا فجأه.

** ** ** **

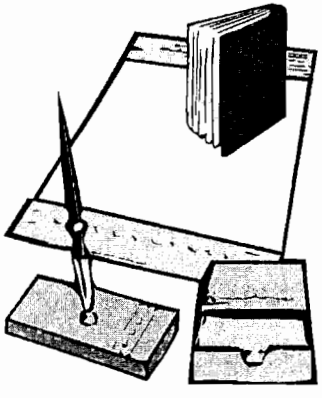

وكيل النيابة

عرفت رشدى حامد كزميل فى الدراسة الثانوية قبل أن أعرفه كضابط شرطة، كان تاريخ والده فى سلك القضاء من الصفحات الناصعة التى طالما فخر بها أساتذتى فى كلية الحقوق، وتحدث عنها السياسيون والقضاه على حد سواء، وكان حماس رشدى لعمله وتفانيه فيه فضلا عن نظافة يده أمرا جليا لكل من تعامل معه، لكنه دأب على خرق القواعد " البالية " والإجراءات " الروتينية " كما كان يطلق عليهما، ويشبههما بمن يمتطى سلحفاه بينما طريقة سالك واضح، والمواصلات متاحة، لا لشىء سوى أن من قبله دأبوا على ركوبها، مشكلة صديقى القديم أنه كان يعتبر نفسه ضابط شرطة "بصفة مؤقتة" إلى حين يفى والده بوعده وينقله إلى سلك القضاء، مما جعله يتصرف دائمًا كمن يملك وسائل وادوات و معلومات ضابط الشرطة، وصلاحيات وكيل النيابة، ظل يُشعرتى أنه يصدر حكمه فى كثير مما يناط به توليه من قضايا وتحقيقات قبل أن تعرض على القضاء أصلاً.

لكننى لا أنكر أنه أذهلنى فى أحيان كثيرة بصدق حدسه ونظرته الثاقبة، وقدرته على تحليل شخصية من يتعرض لهم فى عمله تحليلا يدهش الإنسان لدقته وشموله، ومع هذا فقد ظل رؤساؤه يشكون من حدته وتخطيه لصلاحياته، وعدم تقديره لظروف كل قضية مما سبب لهم إحراجًا فى مناسبات كثيرة.

أطلعنى رشدى على جوانب كثيرة من ظروف وفاة فوزية شقيقة فهمي عبد الرحمن السياسى المعروف، وتناقشنا كثيرا فيما عرضه علىَّ من وقائع... كان لا يحب عمدة القرية ولا شيخ الخفر، ويعتقد

أنهما يخفيان عنه ما يعرفانه عن ظروف السرقة، وربما الوفاة نفسها. كما لم يكن مرتاحًا لحارس المنزل وزوجته، لكنه استمع لنصيحتى ولم يقبض عليهما، واكتفى بأن أمر بمراقبتهما سرًا، كما سجل الأقوال التى ظن أنها قد تدين فهمي بك ـ شقيق المتوفية ـ نفسه، وإن كان فيما يبدو لم يلزم الحذر كما رجوته، فكان الحادث الذى تعرض له، لم أصارح أحدًا بشكوكى حول هذا الأمر إطلاقًا، فقد تعودت الا أصل إلى النتائج إلا بناء على أدلة ملموسة ثابتة من الناحية القانونية، إلا أن رشدى وكذلك والده كانا موقنين أن الحادث مدبر.

بعد زيارتى لرشدى فى المستشفى بيومين، حضر والده وسلمنى ملفا قال انه صورة التحقيق الذى أجراه إبنه، كما أعطانى عدة شرائط "كاسيت" سُجلت عليها بعض الشهادات الهامة،.. إحتفظت بالملف والشرائط فى شقتى كما أوصانى، وفى اليوم التالى إستدعانى رئيس النيابة الذى كان يشرب قهوته مع مأمور المركز، تطرق الحديث إلى التحقيق الذى دار حول وفاة السيدة فوزية، انتقدا أسلوب صديقى وأتهماه بالاندفاع والتهور، ألمح المأمور إلى أن فهمي بك رُشح لوزارة العدل فى التشكيل الوزارى القادم، قال لى رئيس النيابة أنه كلفنى بالقضية طالبًا أن أركز على موضوع السرقة طالما أن الطبيب الشرعى أكد أن الوفاة طبيعية، والا أنساق وراء استنتاجات لا دليل عليها واتهامات لا طائل من ورائها إلا إستعداء كبار المسئولين.

لم أسعد بتكليفى بالقضية وإن كنت أتوقعه، ولم أصرّح برأيى فى كل ما قيل، إذ لم يكن المقام مناسبًا لأى رأى مخالف، علق رئيس النيابة بعد إنصراف المأمور قائلا أنه لا ينصحنى بأن أضع وزنا لأى إعتبار، إلا تحرى الصدق والحيدة، لكنه أنتقد خوض التحقيقات فى مسائل عائلية، وأسرار لا تقدم ولا تؤخر فى صلب الموضوع، وقال ضاحكا:

" لعل السيد المعاون يظن نفسه " هيركيول بوارو " أو " شرلوك هولمز" فى إحدى الروايات التى يسلى بها نفسه".. وتساءل عن سر الفارق الشائع بين شخصيته وما سبق أن علمه عن والده بما يشرف أى قاض، وحملت ملف القضية عائدا إلى مكتبى، ولم أتمالك أن تساءلت فى نفسى: "هل كان رأى رؤساء القاضى حامد البشير والد رشدى فيه خيرا من رأى رئيس النيابة والمأمور فى ابنه؟!"... أظن أن الإجابة هى بالسلب إذا روعيت طبيعة الأشياء فى بلدنا.

** ** ** **

أحسست بعد أن طالعت الملف بالجهد الفائق الذى بذله رشدى فى التحقيق والتحرى، لمست الأسباب المقنعة التى بُنيت عليها شكوكه فى ظروف الوفاة نفسها، كما فهمت لماذا لم يكن واثقًا أن حارس المنزل كان صادقا تماما فى أقواله، فقد أحسست أنه لابد أن يكون له يد فى السرقة، فلم تكن هناك علامات تدل على ان المنزل قد تم إقتحامه بالقوة، ولم يكن هناك من يملك مفتاحًا للمنزل ولخزنة النقود - بإستثناء أصحابها - سواه، كما أننى أستشعرت أن تدخل الشرطة لم يكن مرغوبا فيه، سواء من جهة العمدة أو فهمي بك نفسه، وإن لم يظهرا ذلك بالطبع صراحةً.

أعدت إستجواب الجميع، وواجهت حارس المنزل بالشهود الذين أكدوا أنه كان ينفق الأموال بصورة لا تتناسب مع إمكانياته، وشعر الرجل بالحلقة تضيق حوله فإعترف أنه كان قد إختلس نسبة كعمولة من إيجار أرض فوزية هانم، لكنه اكد أن معظم الإيجار كان فى الخزنة التى وجدت فى صبيحة اليوم التالى مفتوحة وفارغة، وأنه شك - عندما إكتشف موت المرحومة - أن يكون هناك من قتلها وسرق نقودها ومصاغها، وكان هذا سبب إبلاغه عن الحادث.

أصبحت كمن دخل الغرفة المحرمة - فى الروايات الشعبية - مكرهًا، لكنه مالبث أن وجد نفسه أسيرا لأشخاصها مسحورا بمحتوياتها، لم أنج من الإغراء الذى وقع فيه رشدى قبلى، شعرت بالحيرة أمام العمدة ببشاشته وتظاهره بالترحيب والرغبة فى المعاونة، وما أجده من رجاله وفلاحى القرية من التحفظ والإصرار على كلمات محسوبة لا يتعدونها، كما لمست سحر شخصية فهمي بك بتواضعه الجم، وبدا أخويه غير الشقيقين كمجرد ظل له، وأدركت قوة تأثيره ونفوذه على من حوله سواء فى القرية أو خارج نطاق الإقليم، إستدعيت مأمور الشهر العقارى و طبيب السيدة فوزية، كما فوجئت بخطيبة ابن فهمي بك تحضر لتدلى بأقوالها، وإستمعت إلى ألفت إمام التى بدت لى حصيفةً وعاقلةً، وأدركت أن حزنها على ما حدث لها وما لقيته فى حياتها يفوق حزنها على صديقتها التى كانت رفيقتها فى الوحدة، وسلواها بعد ما مر بها من ظروف سيئة!...

لم أدر هل فهمي بك هو ذلك المستهتر الماجن الذى أرسله أبوه إلى أوروبا حتى يرتاح مما سببه له من المتاعب، فعاد رجلاً قاسيًا ماديًا متحجر القلب يدوس على كل شىء ويطيح بكل إنسان يقف فى طريقة أو يعترض مصالحه؟، أم إنه هو ذلك الشاب الخيالى الحالم الذى وقع فى حب إنسانة فقيرة، ولم يقم وزنا للفارق الاجتماعى بينها وبينه، ثم تحول لشخص أخر بتأثر الضغوط والظروف عندما عاد من أوروبا، أم انه رجع ليجد خطيبته وقد إرتبطت بحب جديد مع أستاذها فى الجامعة - كما أخبرنى أخوه - فإضطر أمام رغبتها أن يفسخ الخطبة فى سرية تامة، وأن يبحث عن العزاء فى زواج ترتبه الأسرة، ويتفق مع مستواها ومصالحها... لكنه لا يتخلى عن محبوبته عندما يوقن ان أستاذها قد تملص منها فى النهاية، فيسأل أخته - صديقتها - أن ترعاها دون ان يسعى لتجديد علاقته بها إحتراما لزوجته وأسرته...؟!.

ولم أعرف كذلك هل كانت ألفت إمام تلك الفتاة التى دعاها ذكاؤها وتفوقها إلى أن تهرب من مصيرها الذى كان ينتظرها فى القرية، والذى لم يكن إلا القبول بالفقر والعوز والعيش ألى الأبد مع من يذكرون فى إستنكار سيرة جدتها لأمها وخالاتها - أسرة الخواجة - الذين لم يراعوا التقاليد ولا العادات واشتهروا بالسير المعوج وامتصاص دماء الفلاحين، ولم ينسوا زواج أمها من إمام أفندى وما ثار حوله من اشاعات، وهل وضعت عينها على فهمي عبدالرحمن في الغربة حتى نجحت فى إيقاعه فى حبائلها، فكاد أن يتزوجها غير مدرك أنها أرادت أن ترد الصفعة لعائلته، و لأهل القرية الذين طالما عايروها بسيرة والدتها؟... وهل دفعها نفس الطموح بعد ذلك إلى التطلع إلى الارتباط بأستاذ جامعى متزوج وله أسرة؟..، فكادت أن تنجح فى مسعاها لولا أن الرجل علم أنها أخفت عنه خطبتها لفهمى عبد الرحمن، وأدرك نوعيتها الإنتهازية، مما جعله يصارحها بأنه قرر قطع علاقته بها، فأضطرت إلى السفر للخارج لفترة تعود بعدها لتبدأ حياتها فى مدينة أخرى مع رجل أخر، لكنها تظل بعيدة عن أسرتها، حريصة على عدم الإقتراب من إخواتها بأكثر مما تسمح مصلحتها...؟ أم أصدق كل ما روته هى نفسها عن ظروف معرفتها بفوزية ثم بأخيها فهمي فى الغربة وماتلا ذلك من تنكرهما لها، ثم عودتها لصداقتها مع فوزية وارتباطها بها ونسيان جراح الماضى .... وأن كلَّ ما اشيع عنها انما هو مجرد أقاويل وشائعات كاذبة ومغرضه..؟.

وهل كان عمدة القرية ضالعا مع المطاريد فى عمليات بيع السلاح التى علمنا عن بعضها بعد فوات الأوان؟.. وهل ظلت نقوده ونقود أهل قريته معهم يتاجرون بها فى المخدرات وسائر الموبقات؟..، أم أن هذه أيضا مبالغات من حاسديه من أهل قريته والعائلات التى تطمح إلى العمودية؟..

وفوق ذلك هل تظل ظروف وفاة فوزية عبد الرحمن غامضة وغير مفهمومه؟..، وكيف أصدق أنها ذهبت لتنقل ملكية أرضها لأخيها الذى لم يكن على وفاق معها قط وهى فى أخر أيامها..؟..، وما الدافع وراء عودتها المباغتة للقرية دون سبب ظاهر؟..

ومن الذى أوصلها إلى منزلها هناك؟.. ومن سارق الحلى والنقود..؟

** ** ** **

تماثلت صحة رشدى للشفاء، وقاربت إجازته على الانتهاء، شعرت بالحزن وأنا أخبر والده أن مجهوده فى جمع المستندات وإستكمال التحقيق قد أصبح مآلة الحفظ بعد أن تنازل فهمي بك عن حقه فى النقود التى إعترف الحارس فجأة بإختلاسها، وكان فهمي قد حضر وأكد لى أن كل نظار الزراعة يأخذون لأنفسهم عمولة على إيجار الأرض، ويعتبرون ذلك حقاً لهم، وأن ملاك الأراضى يعلمون ذلك ويتجاهلونه حتى تسير الأمور وتدار الأرض بصورة مرضية وميسورة للجميع، ولكن سارق الحلى الذهبية ظل مجهولاً، ومع ذلك مال رئيس النيابة إلى حفظ التحقيق متجاهلا شهادة مأمور الشهر العقارى حيث لم يؤد تسجيل أملاك المرحومة بإسم أخيها - وهو شقيقها ووارثها الوحيد - إلى غبن أو ظلم لأحد .

ورغم أننى قضيت أسبوعين مضنيين فى تحقيقات متواصلة مع العمدة وأهل القرية، ثم مع أصدقاء المرحومة وأقاربها إلا أننى أصبحت أميل إلى أن حفظ القضية أضحى لا مفر منه، وشعرت بالراحة والإطمئنان لإتجاه رئيس النيابة الذى رأى أنه يجنبنا السير فى طريق مسدود لا طائل من وراءه.

اتصل بى رشدى عقب عودته إلى عمله، وأكد لى أنه كان برغم كل شىء يتوقع هذه النهاية لموضوع الوفاة، وذلك لتشابك الحادثة مع مصالح كثيرين من الأقارب وأهل القرية من ذوى النفوذ الذين يهمهم

أن يغلق هذا الملف نهائيا، لم أدر ماذا أقول.. دعوته إلى العشاء فى نادى القضاه احتفالا بإستعادته لعافيته فقبل شاكرا.

فأجأنى وجوم صديقى وإصراره على ألا يتناسى قضيته، روى لى منامًا رأه أثناء وجوده بالمستشفى فضحكنا سويًا برغم أنه لم يكن سعيدًا، أدركت أنه لا ينسى فى قرارة نفسه أن حادثة السيارة التى كادت أن تودى بحياته لم تكن مصادفة، ولعله إعتقد أن لفهمى بك ضلعا فى تدبيرها، حاولت أن أغير موضوع الحديث مرارًا دون جدوى، لكننى شعرت بمدى ضيقه عندما سألنى فجأة: "هل كان أبى محقا عندما ترك العمل فى فرنسا ليعود لوطنه، وعندما نبذ التدريس فى الجامعة ليعمل فى القضاء؟"... لم أدر ماذا أقول له إذ شعرت برفضه لكل شىء .. و غضبه العارم على كل ظروف البلاد وملابسات العمل.

بعد يومين إتصل بى رشدى وأخبرنى فى إستبشار أن لديه أخبارًا هائلة، وضعت سماعة الهاتف، وأنا أضرب أخماسًا فى أسداس، حضر صديقى القديم إلى مكتبى قبيل انتهاء موعد العمل، وإندفع قائلا انه وجد السائق الذى أوصل فوزية هانم إلى القرية، وأضاف فى إنتصار وقد أضاء البشر وجهه لأول مرة منذ فترة طويلة: "لقد وجدت السر الذى طالما جاهدوا لإخفائه عنى، لكننى لن أبوح بشىء قبل أن أحضر لك محضرًا رسميًا وشرائط التسجيل اللازمة، استمع إلى المفأجاة الاتية: فوزية عبد الرحمن عادت إلى قريتها ميتةً فى حقيبة يحملها سائق السيارة، ومعه سيدة أخرى، بعد وفاتها المفأجاة فى شقة ألفت إمام، هل تعرف من هو السائق..؟! وهل تعرف من السيدة التى رافقته فى توصيل الجثة إلى فراشها فى منزلها فى القرية..؟! هذه مفاجآت وسأتركها للغد لأخبرك بها".

كان رشدى سعيدًا منتشيًا، وأكد لى أنه سيحضر قريب ألفت الذى طال إختفاؤه إلى مكتبى فى اليوم التالى ليدلى بشهادته الرسمية امامى، ويميط اللثام عن أسرار وفاة فوزية، ويفضح ما فعله فهمي

عندما جعل سيدة أخرى تنتحل شخصيتها وتذهب إلى الشهر العقارى لتسجل ما تملكه بإسمه، وكان فهمي قد أتفق أول الأمر مع محاميه، وهو محامى شقيقته فى نفس الوقت، على أن يتعمد تسجيل وصية المرحومة التى توزع ثروتها على الجمعيات الخيرية بحيث تكتب فيها أسماء هذه الجمعيات بشكل خاطىء يجعل الإستدلال عليها مستحيلاً، مما يؤكد أن المرحومة لم تكن متمالكة لقواها حين أملت وصيتها، ويمكن لفهمى بذلك الاستيلاء على إرثه منها، وذلك ما عرفه رشدى عن طريق أحد المحامين العاملين فى مكتب محامى فهمي بك نفسه..، لكن وجود فوزية مريضة عاجزة فى منزل ألفت جعلهما يلجآن إلى حل أسهل، وهو أن تذهب إحدى السيدات منتحلة شخصية فوزية إلى الشهر العقارى لتسجيل كل ما تملك بأسم شقيقها فهمى، وظل سبب تغيير خطة فهمي الأولى وعدوله عنها غامضًا، لكن انسحاب قريب الدكتورة ألفت أوضح هذه النقطة فيما بعد.

راح رشدى يؤكد لى أن لديه دليلاً دامغًا على كل كلمه يقولها، وأنه سعيد بأن يلقى رجل له أخلاق فهمي عبد الرحمن مصيره الذى يستحقه على يديه، مما يلقن أمثاله درسًا لا ينسى، ولا يمكن محوه خاصة بعد ما دبروه له..، فهمت أنه يقصد حادث السيارة فطمأنته أن قرار حفظ التحقيق لم يصبح نهائيا بعد، وأننى سأنتظر حتى يوافينى بما عنده..

قضيت ليلتى أتذكر أيام الدراسة فى المدرسة الثانوية، وزياراتى لرشدى فى منزله، كان أبوه آنذاك قد عاد للعمل قاضيا فى محكمة النقض، وفى أحد الأيام ذهبت إلى منزل رشدى قبل موعدى، فقابلنى والده وأصر على أن اتناول معه فنجانا من الشاى انتظارا لإبنه، حدثنى عن رشدى الذى كان ابنه الوحيد، ماتت أمه وهو فى السادسة فأصبح القاضى هو الأب والأم معا، رفض فكرة الزواج وتفرغ لتربية وحيدة الذى أصبح امله ومحور حياته، قال لى الأب يومها وهو يرتشف

فنجانه: "هل أستطيع الأن أن أضحى بكل شىء فى سبيل ما أؤمن به؟!.. أم أن مسئوليتى عن إبنى جعلتنى أهادن وأتجنب المواجهة؟"..
ودهشت لهذا الحديث الذى كان فوق مستواى آنذاك.

وها هو رشدى يعيد سيرة أبيه فيواجه الموج العاتى ويقف فى وجه فهمي عبد الرحمن نفسه، فيا ترى ما هو موقف الأب المحب الحريص على مستقبل ابنه..؟ وهل سيتركه يواجه فهمي بك بكل نفوذه وسطوته ويكرر قصته نفسها؟.. الله وحده يعلم، والكل يفهم أن ظروف القطر تغيرت عما كانت عليه فى أيامه، وأن مفرمة السلطة أصبحت لا تقيم وزنًا لمبدأ أو لشخص أيًا كانت قيمته أو منصبه، وأن المعايير والمقاييس قد بُدلتا وصارت السلطتين القضائية والتشريعية تقدسان أصحاب السلطة التنفيذية، وتحميان أهواءهم ورغباتهم ومصالحهم، لم يعد هناك وزن لأصحاب المبادىء والقيم من الحالمين بمجتمع مثالى، إذ توحشت أجهزة الأمن، فأصبحت تفترس كل من تسول له نفسه الوقوف فى وجه هذه الأهواء والرغبات والمصالح....

** ** ** **

لم يحضر رشدى شاهده الموعود فى اليوم التالى، ولم يتصل أو يحضر كعادته للقائى، إتصلت مساءً بمنزله فلم أفز برد على جرس الهاتف، مررت على مكتب والده فوجدته مغلقًا، وتكرر الأمر فى اليوم التالى حتى أصابنى القلق و عصفت بفكرى الظنون، فى اليوم الثالث لم أطق صبرًا فإتصلت بالمركز فأجابنى الجندى المكلف بمكتب رشدى أنه متغيب منذ يومين لأمر طارىء، عاودت الاتصال بمنزله ومكتب والده دون مجيب، كان اليوم الرابع هو عطلة نهاية الأسبوع، طالعتنى أنباء التشكيل الوزارى الجديد، واختيار فهمي عبد الرحمن وزيرا للدولة، لم أدر ماذا أفعل فعولت على أن أمضى في تنفيذ ما إتفقت عليه مع رئيس النيابة بخصوص حفظ القضية في أول يوم من الأسبوع التالى.

توجهت إلى المركز حيث قابلنى المأمور مرحبًا، وقال لى: "هل جئت لتهنئة زميلك الجديد..؟!.. لم أفهم ما يعنيه، فأخبرنى أن رشدى حامد قد عين وكيلا للنائب العام منذ أيام، وذلك ضمن مجموعة جديدة، منها عدد من ضباط الشرطة، سألته إن كان يعرف أخبارًا عن والد رشدى، فأكد أنه بخير، لكنه سافر إلى العاصمة مع إبنه الذى كان عليه أن يتسلم عمله هناك قبل أن يختاروا له المنطقة التى سيعمل بها.

ذهبت إلى البنك الذى يعمل به قريب ألفت إمام وسألت عنه، فأخبرنى زملاؤه أنه نفذ أخيرا ما كان يخطط له منذ فترة طويلة، وغادر القطر مهاجرا إلى إحدى بلاد العالم الجديد، لم أدر كيف أفسر ما حدث وعزمت على زيارة والد رشدى في المساء، لكن مكتبه ظل مغلقاً فلم أستطع لقاءه.

علمت فيما بعد أن فهمي عبد الرحمن قد شرع في بيع أرضه وأرض شقيقته التى آلت إليه، كان المشترى الذى طال انتظاره هو نفسه الذى ألح في شراء الأرض قبل ذلك، توسط العمدة في الصفقة، ويقال انه فاز بمبلغ طائل من المال من ورائها، أقام أخو فهمي بك في المنزل الذى تركته السيدة فوزية، وأشرف على زراعة أرضه وأرض أخيه، وتعود أن ينتقل بين عمله في عاصمة الإقليم وقريته كما كانت أخته تفعل ذات يوم.

ظللت في حيرتى إلى أن إستدعيت حارس المنزل الذى كان قد أودع مؤخرًا في الحجز على ذمة التحقيق، ورغم أننى لم أكن مرتاحًا لأقوال فهمي بك بشأنه، ولا لحيل محاميه الذى جعله يغير أقوال، إلا أننى كنت أعلم أن كل شئ سينتهى بحفظ التحقيق، وسيعود الرجل إلى قريته سالما من غير سوء، وقد أضحت جريمته غير ذات بال وسط خضم الأحداث التى يراد دفنها ونسيانها، أشرت إلى كاتب النيابة ان ينصرف حالما وصل الرجل إلى الغرفة، وألمحت إليه أن من حقى أن

أمدد حبسه على ذمة التحقيق ـ برغم ما قاله فهمي عبد الرحمن عن تنازله عن حقه ـ تمسكاً بحق الدولة، إرتجف الرجل الذى كان قد وطن النفس على العودة لمنزله واهله، فسمحت له بالجلوس حتى هذا روعة، وسألته أن يحكى لى ما يعرف عن فوزية وأخوتها، فإستحلفنى أن أطلق سراحة إن صدقنى، وعدته بذلك ملمحًا اننى اعرف بعض التفاصيل التى أحب أن أستوثق منها، ويبدو أننى نجحت في إيهامه بما أريد فقد إنطلق لسانه وأخذ يحكى لى القصة من أولها.

** ** ** **

كان والده يعمل لدى عبد الرحمن باشا كناظر للزراعة، ورغم أن العمدة القديم، كان يكلف أحيانا من قبل الباشا ببعض المهام التى قام بها ليرضيه ويتجنب أذاه، لكن الحقيقة أن الرجلين لم يكونا على وفاق كما ظن القرويون أيامها، وكان فهمي هو الابن الأكبر للباشا، ماتت والدته، وتزوج الباشا من إحدى قريباته قبل أن يمر عام على وفاتها، ولم تكن الزوجه الجديدة على وفاق مع أولاد زوجها، لكنها كانت تخشى فهمي بصفة خاصة، وتسعى إلى أن يحرمه والده من ميراثه خاصةً بعد أن أنجبت ولديها، وربما كان شعورها هذا وراء الكثير من الإشاعات التى ضخمتها عن سلوك فهمي في المدينة، والتى ظلت تنتشر عن طريق معارف زوجه الباشا وخدمها من أهل القرية، كان الخواجة الأرمنى جد ألفت قبل ذلك قد فتح خمارة على أطراف المركز، ودأب بعض الميسورين من القرية على التردد عليها، وتعرف عبد الرحمن باشا في هذا المكان بإبنه الخواجة عن طريق العمدة الكبير والد العمدة الحالى، ويبدو أن العلاقة بينهما تطورت بسرعة، حتى خاف الباشا من أن تفتضح إذا ظهرت ثمرتها التى بشرته بها إبنه الخواجه مهددة إياه إذا لم يجد لها مخرجًا، ولم يعرف الباشا ما إذاكانت المرأة صادقة، أم أنها لجأت لهذه الطريقة لإبتزازه، لكنه مال إلى تصديقها خاصةً وأن بعض نسوة القرية أكدن أنها كانت حاملا فعلاً قبل زواجها،. كان الخواجة قد أصبح من

أثرياء القرية بعد أن إمتلك مساحة كبيرة من الأطيان عن طريق شرائه لأرض من لم يسددوا الأموال التى كان يقرضها بالربا الفاحش، وعرف الباشا أن عليه أن يقبل تدبير زوج لعشيقته يدارى فضيحتها، وفي نفس الوقت فإنه اشترى أرض الخواجه بسعر يعتبر باهظًا آنذاك، وبذلك بدأت قصة ألفت إمام أو "الدكتورة" كما عرفها القرويون.

أصبح إمام أفندى زوجًا لابنه الخواجة، وعمل عند الباشا بعد تخليه عن عمله في عاصمة الإقليم، كما كان يعمل عند صهره الذى ترك الأرض والقرية بلا رجعه، ويعتقد العمدة وناظر الزراعة وبعض الذين عاصروا هذه الحادثة أن الباشا كان يظن أنه هو والد ألفت التى نشأت وترعرعت في منزل إمام، ولا يدرى أحد ما هو شعور هذا الرجل، وماذا دفعه إلى قبول هذه الزيجة، والطريف أن بعض أهل القرية ظنوا أن إبنه الخواجة قد أخطات وزلت مع إمام أفندى، مما دعا والدها لقبول تزويجه منها قبيل تركه للمنطقة بأسرها.

كان فهمي واعيًا عندما لاحظ أهتمام أبيه بألفت، فألح عليه أن ينسى أمر الفتاة، ولم يكن مؤمنًا أنها فعلا أخته، لكن الباشا رفض هذا تمامًا وظل على ضلاله القديم، وكانت زوجة الأب تنقل للجميع ما يحدث بين زوجها وإبنه بصورة معكوسة بحيث يظن الناس أن الباشا غاضب من سلوك إبنه لا العكس، وظل عبد الرحمن باشا يكتفى برعاية من يحسبها إبنته عن بعد، وبصورة لا تثير الشكوك، وشجَّع فوزية هانم على مصادقتها حتى يتيسر له ذلك.

عندما ذهبت ألفت إلى الخارج مع فوزية، فإنها قابلت فهمي وأحست بتعاطفه معها، ولما كانت موقنة أنها ليست أخته فقد إتفقت معه على أن يتزوجها، وذلك فيما يبدو حتى تنال جزءًا من حقها من ثروة أبيها المزعوم، لكن الباشا كاد أن يجن عندما علم بما نواه إبنه، وأجبره على أن يصرف النظر عن هذا الارتباط، ومنعه من رؤيتها بعدئذ، وعرفت ألفت منذ عودتها من الخارج أن زواجها الصورى من

"أخيها" لن يتم بعد تدخل فوزية وأبيها، لكن الماضى ظل يطاردها في حياتها بعد ذلك، فتسبب في طلاقها من زوجها التاجر، وربما في هجرة ولديها أيضا.

إعترف الرجل أنه تسلل إلى المنزل مساء يوم حضور فوزية هانم في ساعة متأخرة، بعد إستدعائه وزوجته بواسطة العمدة حتى يودع أخر مبلغ كان حصَّلة من إيجار أرض فوزية عبد الرحمن في الخزنة، لكنه وجد الخزينة مفتوحة وفارغة، وفوجئ بباب غرفة سيدته مفتوحا ورأها نائمة في وضع مائل وكأنها توشك أن تسقط من فراشها، فإستدعى زوجته بسرعة، أكدت له الزوجة وفاة فوزية، وظلا لايدريان ماذا يفعلان لكن الزوجة فوجئت بضياع المصاغ، وإتفقا على ضرورة إحضار الشرطة وإنكار دخولهما المنزل فى المساء حتى يبعدا الشبهة عنهما، وفضَّلا أن يكون إستدعاء الشرطة في الصباح بعد أن رتبا ما يقولانه في التحقيق.

تم الإفراج عن الحارس، وأصبح حفظ التحقيق في الحادث محققاً، أحسست بالإرهاق والتعب وأنا أبلغ رئيس النيابة بملخص ما تم في التحقيق، لم أذكر شيئا عن حديثى مع حارس المنزل وإستأذنته في الذهاب إلى منزلى مبكرا.

** ** ** **

رغم عدم رضاى عما تم إلا أننى شعرت بالسكينة بعد انتهاء دورى فى التحقيق، لم تمنعنى بعض الأسئلة التى ظلت معلقة من أن أسعد في قرارة نفسى لنجاتى من التورط والدخول في التصادم مع فهمي عبد الرحمن الذى قد يكون وراء ما جرى لصديقى رشدى حامد، وأجل رئيس النيابة قراره النهائى عدة أيام، فطلبت منه إجازة قصيرة فوافق على الفور.

نعمت بفترة إسترخاء وراحة إستمرت أيامًا، ولم يعكر صفوها إلا بعض الخواطر المتعلقة بحادثة وفاة فوزية، كما أننى أخذت أتساءل في

دهشة وحسرة عما إذا كان والد صديقى رشدى قد باع تاريخه ونقاء سيرته، هل يفسر تعيين إبنه في النيابة العامة كانه الثمن الذى إرتضاه ليقبل هذا الانحراف المفاجئ عن الخط الذى سار عليه طوال حياته، وصنع بالتزامه إياه سيرته الناصعة..؟.. غالبت ظنونى وتهيبت أن أدين الرجل الذى شببت على إحترامة دون أن أسمعه، أو أعرف من ابنه - وهو صديقى - حقيقة ما حدث، لكننى تساءلت عما كنت أفعلة لو كنت في مكانه دون أن أجد جوابًا شافيًا، بيدأنى تمنيت أن أكون مخطئًا وأن تكون وظيفة رشدى التى طالما حلم بها مجرد صدفة لا علاقة لها بالحادث أو التحقيق.

وعصفت بذهنى الإفكار وتناوبتنى الظنون، وظللت طيلة الأيام التى تلت في بحر لجى من التوقعات الغامضة، كنت أحيانا أستغرب عما جعل فهمي عبد الرحمن يفكر يومًا في الارتباط بألفت إمام، هل كان واثقا إنها ليست أخته غير الشرعية، وأن أباه - عبدالرحمن باشا- تعرض لعملية نصب ..؟ ومن تكون هى السيدة التى رافقت ذلك السائق المجهول إلى القرية لنقل جثة فوزية إلى منزلها وفي فراشها؟ .. وكيف واتتها الجرأة على الاتصال بالعمدة زاعمة أنها فوزية لتطلب منه إرسال الحارس وزوجته حتى يظل الجميع موقنين أن فوزية عبد الرحمن ماتت بعد وصولها إلى القرية. ؟ ثم يبقى السؤال الأهم: من الذى طمع في مال فوزية ومصاغها؟.. ورغم التشابه بين ألفت إمام وفوزية فإننى ظللت أستبعد أن تكون هى التى أنتحلت شخصية فوزية في الشهر العقارى... أو في رحلتها الأخيرة للقرية حيث يعرفها الجميع.

وأشفقت من معرفة الحقيقة، ففى كل مرة يظهر فيها ضوء كانت الشخصيات تنقلب من الخير إلى الشر، وتتبدل أدوارها تبدلا بيّنًا وجعلنى هذا متخوفًا ممت ظننته سينكشف من أسرار أليمه فيما لو كان رشدى قد وفي بوعده وأحضر الملف والشرائط، وظللت قانعًا في قرارة نفسى بانتهاء الأمر على هذا النحو المبتور.

الخاتمة

فؤجى وكيل النيابه بعد أيام قليلة بمكتب والد رشدى مضاء فلم يستطع مقاومة رغبته فى رؤيته، دخل المكتب فوجده يغص بالعملاء، فتراجع حتى لا يضطر إلى الانتظار طويلاً، وعاد بعد أن تمشى حول المكتب حوالى الساعة ليهدىء من روعه، كان الساعى يعرفه فلم يتردد فى إبلاغ والد صديقه الذى لم يتركة بدوره ينتظر طويلاً، عندما دلف إلى غرفة الأستاذ حامد وجده مشغولا بمجموعة من الأوراق على مكتبه لعلها تراكمت أثناء فترة غيابه، كان واضحا أن وقته لا يتسع للترحيب به فإعتذر له، ومد يده إلى أحد أدراجه فأخرج منه ملفا وعدة شرائط "كاسيت" سلمهم إليه قائلا إن رشدى أرسلهم، معتذرا لأنه تأخر عن موعده نظرا لأمر طرأ سيذكره له عندما يحضر بنفسه لمقابلته فى اليوم التالى، تم نهض مودعا وهو يقول "أنا ورشدى مستعدان للوقف إلى جانبك فى أى مكان تحتاجنا فيه"..، وأضاف:

" قد يكون فى هذه الأشياء جلاءٌ لمعظم النقاط الغامضة، وإذا وجدت فى نفسك الرغبة والشجاعة لتخوض معركة تشبه معاركنا القديمة فنحن هنا لمعاونتك...".

خرج وكيل النيابة يجرجر قدميه وينوء بحمله من الأفكار والمخاوف، داهمته الهموم بعد أن ظن انه نجا منها إلى الأبد.

الغريب انه فوجىء عند خروجه بالدكتورة ألفت إمام وقد تخلت عن ملابس الحداد، وظهرت على وجهها علامات الرضا والإطمئنان حتى تغيرت ملامحها، تلاقت أعينهما فردت تحية المساء فى شىء من الفتور، عاد لمنزله وفى أعماقه تمنى ألا تكشف الأوراق والتسجيلات ما يدين أولئك الذين طالما أحبهم الناس وإحترموهم، ولا الذين وقع

عليهم الظلم والحيف فأعمى بصيرتهم ودفعهم إلى الإنتقام من معذبيهم وجلاديهم، تذكر رغمًا عنه الدكتورة ألفت بناظريه وهى تدخل مكتب الأستاذ حامد المحامى فى ثقة وثبات، وتساءل عما دفعها إلى مقابلة الأستاذ فى ذلك الوقت المتأخر.

وجدت جثة قريب د. ألفت إمام بعد أيام فى نزل بالعاصمة الكبرى، كان قد أستاجر غرفة لفترة قصيرة لكنه لم يعد المفتاح، ولم يغادر غرفته مما حدا بمدير النزل أن يفتح الغرفة عنوة،. ففوجى بالرجل ميتا فى فراشة، حضر محام صغير بعدها الى قسم الشرطة ومعه خطاب وشريط كاسيت بصوت المرحوم، يحكى فيهما قصة زواجه من فوزية عبد الرحمن وتهديد أخيها له حتى طلقها، وكيف أنه أثناء مرض فوزية حاول زيارتها ليشرح لها ما حدث ويحذرها من أخيها، وكان قد علم بالتغيير الذى أجراه محاميها فى الوصية التى تركت فيها أموالها للجمعيات الخيرية،وخشى فهمي أن تفسد مقابلته لها خطته للإستيلاء على أموالها، فعاد إلى تهديده، ومن ناحية اخرى وعده المحامى بتسهيل إجراءات السفر ومنحه مبلغا من المال إذ كان ما يزال يفكر فى الهجرة، لكنه خاف من غدر فهمي ومحاميه فترك سجلاً بما حدث عند محام شاب من معارفه لتسليمه للشرطة إذا ما حل به مكروه، وحدث ما توقعه الرجل وإن ظل دور فهمي فى وفاته غامضًا كالعادة، وحفظ وكيل النيابه اعتراف الرجل وشريط التسجيل مع تقرير الطبيب الشرعى عن وفاته التى نتجت عن ضربه بآله حادة على رأسه، ولم تجد الشرطه آداة الجريمة، كما لم توجد بصمات قد تشير إلى الفاعل..! وضُمت الاعترافات والشريط إلى ملف قضية فوزية.

حضر رئيس النيابة فى اليوم التالى فحدثه وكيل النيابة عما حدث، وأطلعه على ملخص لما وجده فى الملفات وشرائط التسجيل..

بعد فترة صمت أخبره أنه سيتحدث إلى كبار المسئولين فى وزارة العدل قبل أن يقرر ما يحب أن يفعله بخصوص التحقيق!...

عاد الرجل فى المساء واخبر وكيل النيابة أن عليهما المضى فى التحقيق إلى نهايته مهما تكن أشخاص من يمسهم هذا التحقيق، وأكد له أن وزير العدل الجديد أخذ علما بالأمر، وأنه يظن ان والد رشدى قد كلمه بهذا الخصوص.

لكنه نبهه إلى عليه إعاده إستجواب الشهود ثانيةً، وأن يقوم بفحص الأدلة قبل إستدعاء فهمي عبد الرحمن الذى أصبح ضلوعه فى التزوير ومحاولته إخفاء الحقائق ثابتين بصورة شبه مؤكده، كما جاء فى شهادة الخادمة التى حملت جثمان فوزية الى منزلها فى القرية، وطابقت بصماتها تلك الموجودة فى غرفة المكتب، وعلى خزنة النقود، وصوان الملابس، وفى أرجاء المنزل، وأكدت انها لم تعرف السبب فى إصرار فهمي بك على نقل جثة أخته، وإعترفت أنه هى التى اتصلت بالعمدة بعد أن أخرجت الجثه من الحقيبة، ووضعتها فى فراشها، كما أنها إعترفت بإنتحال شخصية فوزية قبل ذلك بيوم واحد فى الشهر العقارى، وعثر على بعض الحلى الخاصة بالمرحومة فى منزلها مما دفعها للاعتراف بسرقة مجوهراتها، والإستيلاء على النقود بعد فتحها للخزنة بمفتاح كأن مع مفاتيح المنزل بالمصادفة.

واعترف سائق فهمي الخاص بنقل الخادمة مع الحقيبة إلى المنزل، وأنه استخدم التاكسى الذى يعمل عليه فى المدينه، كما أدلى بمعلومات قيمّة عن حادث السيارة الذى تعرض له رشدى حامد أكدت شكوكه عند حضور فهمي عبد الرحمن شعر وكيل النيابة بمدى إنهياره، وكانت أقواله فى البداية متضاربه مضطربة، لكنه ـ عندما حضر محامية ـ بدأ يرتبها قدر الإمكان، ولاحظ أنه إنما كان يهدف فقط إلى تقليص التهم الموجهة إليه بعد أن يأس من نفيها كليًا بصورة مقنعة.

حضر رشدى حامد ليبدى إستعداده للشهادة فى المحكمة، كان سعيدا بوظيفته الجديدة متشوقا لإدانة فهمي عبد الرحمن، لكنه لم يسعد عندما أخبره صديقه وكيل النيابه أن قصارى ما يمكن أن يثبت ضد العمدة وشيخ الخفر هو تحريض الشهود على تغيير أقوالهم، وأن تجارة السلاح والمخدرات ما يزالان دون إثبات.

كان رشدى يدخر آخر مفاجآته، فقد قال له وهو يودعه " ألم تبارك لوالدى وللدكتورة ألفت إمام..؟ نظر إليه وكيل النيابه وهو لا يصدق، لكنه أضاف مؤكدًا: " لقد أعلنت خطبتهما أمس"..، شد على يده مودعا و تركه لا يدرى ماذا يقول، لكنه شعر أنه يتمنى لهما السعادة بصدق، إذ بينما توالت الاعترافات وتجلت الحقائق المفزعة أمام ناظره، وسقطت الأقنعة مظهره علامات القبح التى طال أخفاؤها أو تمويهها، ظلت الدكتورة والأستاذ بمنأى عن كل تشويه ثابت أو إتهام مؤكد، وسعد وكيل النيابه خاصة بأن خرج أسم أستاذه القاضى حامد البشير من هذه القصة نظيفا طاهرا، لا تشوب سيرته شائبه.

بعد هذه الحوادث بأعوام قليلة كان معظم الناس قد تناسوا تفاصيل ما حدث، لكن أحدا لم ينس انتحار فهمي عبد الرحمن الذى أنهى التحقيق بصورة مأساويه مفاجئة، بعد أن افتضحت محاولته الفاشلة للهروب خارج البلاد، وأنتهت بذلك حياته التى حفلت بالطموحات والأسرار.

ظل أهل القرية يترحمون على فوزية عبد الرحمن ويذكرون أياديها وخدماتها، أما عمدة القرية فقد أصيب بعيار نارى فى صدره، وبقى طريح الفراش على إثر الإصابة حتى وافته المنية وهو يهدد المطاريد ويتوعدهم فى نوبات الحمى التى ظلت تنتابه من حين لآخر، وأطلق أهل القرية أسم فوزية عبد الرحمن على مدرستى البنات.

زارت الدكتورة ألفت قبر صديقتها فى القرية مصطحبة زوجها القاضى السابق مرة واحدة، أشيع بعدها أنها سعت كى تنتقل إلى إحدى الجامعات فى منطقة أخرى قريبة من العاصمة الكبرى حيث نقل زوجها مكتبه، وكان هذا أخر عهدهما بالقرية.

دأب رشدى على زيارة صديقة وكيل النيابه فى الأعوام التى تلت هذه الأحداث من حين لآخر، وظل الأخير يتابع من خلاله أخبار والده والدكتورة ألفت، وفى إحدى المقابلات كان يصطحب إبنه حامد الذى كان يأمل أن يكون القاضى رقم ٥ فى العائلة..!!

(تمت)

٢٠٠٠/١١/٣٠ م

** ** ** **

فهرس

العمدة	٣
فهمى عبد الرحمن	١٧
رشدى حامد	٢٦
ألفت إمام	٤٠
وكيل النيابة	٦١
الخاتمة	٧٥

رقم الإيداع

٢٠٠٥/٢١٨٧٩

الترقيم الدولى

977 – 209 – 136 - 4